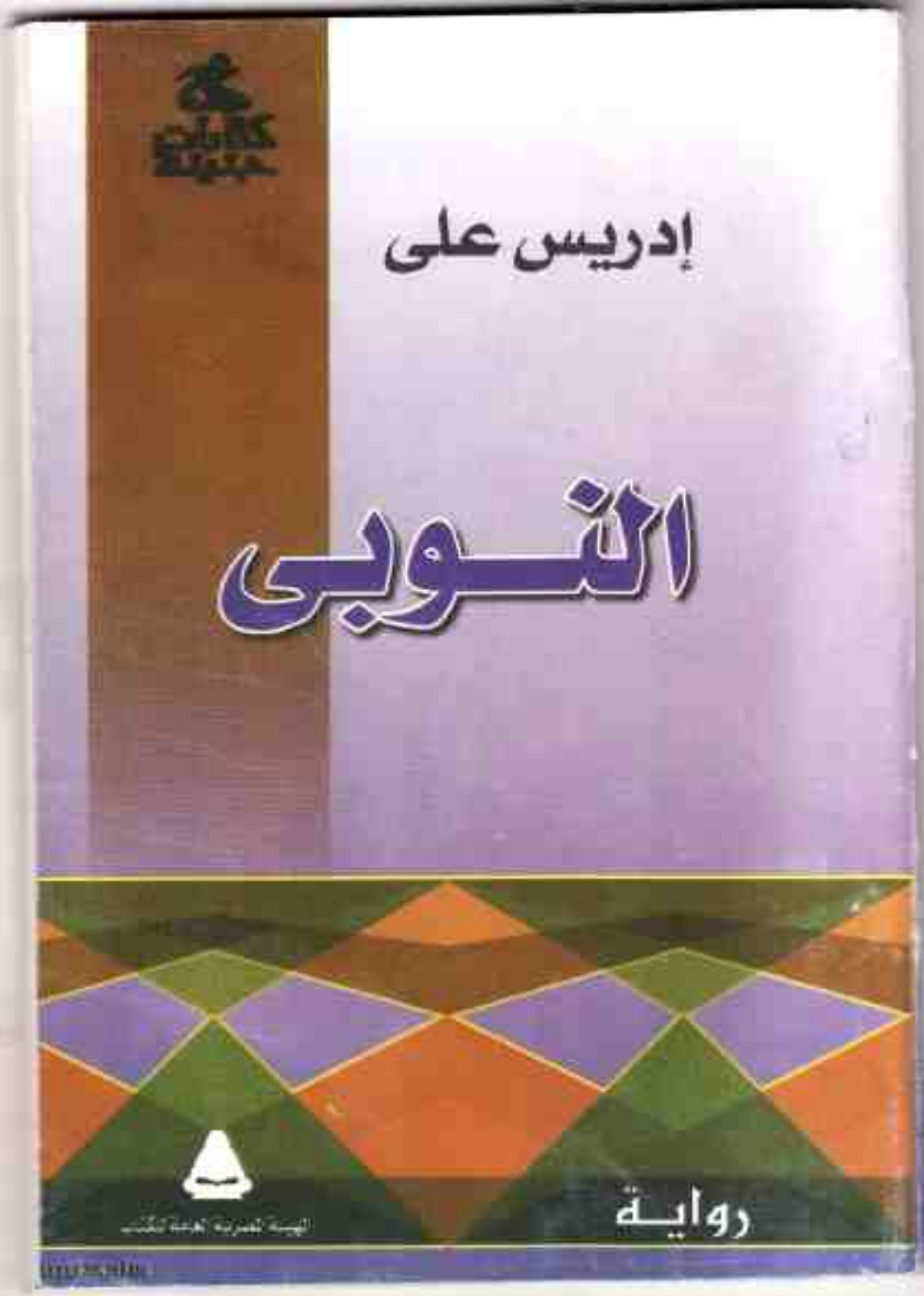
كتابك عبر الحدود
إدريس على
النوبى
رواية
الهيئة المصرية العامة للكتاب

إهـــداء

إلى

هذه الرموز النوبية المضيئة فى سماء القاهرة

«محمد سليمان جدكاب»

و

«إبراهيم شعراوى»

و

خليل كلفت

و

أهل قرينى، قرشة، تحت الشلال

و

أمى:

«آشة همد»

و

أمنا

مصر

وأنا وانت

سلام. سلام. سلام. سلام..

ألف سلام.

إدريس على

١٠

رغم

دعوات جدى وأحجبته.. ارتفع البناء وصار سداً. وعندما أزور القرية، أضحك عليه حتى يطمئن ويرتاح نفسياً: تصور يا جدى مع وجود مئات العمال والأوناش والخبراء الروس؛ فإن المشروع يتعثر؛ فكلما وضعوا حجراً.. تجرفه المياه، والذرية تغوص بالأساسات، لقد استجاب الله لدعواتك.. بالمناسبة.. لماذا لا تدعوه لكى ينزل علينا المن والسلوى. الآن افتضح أمرى ودنت النهاية وسيباغت بيوم الرحيل. سيضربنى على مؤخرتى بعصاه: أكنت تضحك علىّ يا عكروت؟.

جدى رجل طيب مسالم، لا يضمر شراً لأحد ولكنه درويش وكان يعتقد بأن الأحجبة التى يصنعها ويطالبنى فى كل زيارة بوضعها فى موقع السد.. ستعوق عملية البناء.. فكنت ألقيها فى النيل وأتخلص

مدها. وكل مشكلته ذلك التصور القاصر بأن «كشّى» * هى أجمل بلاد الدنيا والدنيا كلها، أحدثه عن أسوان.. عاصمتنا الحضارية، عن القطارات، الكهرباء، مياه الصنابير النقية وعن قسم الأسنان بالمستشفى الأميرى. فهو يعانى من تسوس الأسنان وكان يبكى من شدة الألم، وأحدثه أيضاً عن خبز الأفران الأبيض وعن سهولة الحياة ووفرة الأطعمة؛ المدعس والطعمية الساخنة والفواكه «المرطرطة» فى الأسواق.. فيرد بجملة واحدة مقنعة: «طيب والقروش وين؟».. نعم يا جدى، معك حق، فالعين بصيرة واليد قصيرة. لكننا نحن - أبناء الجيل الجديد - كنا مذبهرين بفكرة الانتقال، لقد زهدنا النوبة بجبالها وفقرها وكآبتها.. فما إن نعبر الشلال فى اتجاه الجنوب حتى نكتشف البون الشاسع بين المدينة والقرون الوسطى؛ ظلام ووحوش وعقارب وجوع ومرض وخرافات؛ فالذى يمرض.. يهلك، لا طبيب مقيم ولا مستشفيات متنقلة ولا معونات إغاثة ولا مسئول واحد يمر، والحسنة الوحيدة أنهم مدوا خطوط التلغراف ومدرسة ابتدائية فى كل قرية. كانت الحياة صعبة ومستحيلة، فإذا أتيح لنا الآن الانتقال لواقع أفضل.. لماذا نرفض؟ حفاظاً على ماذا؟. كان حماسنا شديداً، نحن طلبة المدارس المتوسطة، ولهذا عندما أعلنوا فتح باب التطوع فى منظمة الشباب اندفعنا نسجل أسماءنا.. كان هذا قبل عملية التهجير بشهور قليلة، انتظمنا فى طلائع النصر، وتلقينا جرعة مكثفة من المحاضرات عن الوطن والوطنية والمشاريع القومية الكبرى وعرفنا مهمتنا القادمة؛

* كشّى: اسم قرية نوبية.

مساعدة أهلنا لتقبل الواقع الجديد، وترسيخ المفاهيم الثورية فى أذهانهم. وفى الواقع.. كنت من أبرز المتطوعين وعياً وحماساً. وفى يوم التخرج، حصلت على درع الدورة بسبب إجابتى النموذجية على سؤال غامض طرحه أمين الشباب:

- من أنتم؟

تأرجحت الإجابات بين السطحية والبلاهة وعدم الفهم والمباشرة، ونشط عقلى بسرعة غريبة، استوعبت مغزى السؤال جيداً، وقلت بثقة وتمكن:

- نحن يا افندم، مذبحا النوبة ومصيدا مصر، وفى المساحة بين المذبح والمصب؛ علاقات، حسن جوار، مصاهرات، قرابات وليس هناك ما نتنازع عليه، فكلنا نشرب من ماء النيل، الغنى منا والفقير.

ثم تملكنى شيطان العبث فأضفت لتلطيف الجو ولأسبغ عليه مسحة مرح:

- فى الواقع يا افندم مصر والنوبة «هته واحد».

ضحكت القاعة كلها حتى أمين الشباب، فالجملة الأخيرة كانت بالضرورة تستدعى نكتة قديمة أيام الاستفتاء على استقلال السودان، فقد تحمس أحد السودانيين للوحدة وقاد مظاهرة فى القاهرة فحملوه وأخذ يهتف: «مصر والسودان هته واحد» ولما انزلوه واكتشف أن أحد المتظاهرين نشله، أخذ يصرخ: «مصر والسودان سدين هته».

فقال أمين الشباب معلقاً:

- ظريف والله.. لكننا لن نشكم.

- كنت أمزح يا افندم.

- جميل.. جميل جداً. ما اسمك يا فتى.

سبقنى زملائى ورددوا بصوت واحد:

- إيليس.. إيليس يا افندم.

- اسمك إيليس. لا بأس.

(أمى سامحها الله صادرت اسمى الحقيقى حين فشلت فى ترويضى).

- إنهم يغارون منى.

- لا عليك.. وهل تقرأ؟

- عندما أكون فى أسوان، أفطر بالصحف وأتغذى بالقصص وأتعشى بصوت المذياع، وكل هذه الأشياء ليست متوفرة فى قريتى.

- وهل تسمع خطب الرئيس؟

- وأحفظ بعضها.

- وفى أى مدرسة يا ترى؟

- الصنايع.

- وما مشاريعك المستقبلية.

- أريد الإمساك بالنجوم والتربع فوق سطح القمر.

- حسناً.. كن من الأوائل وأعدك بهندسة القاهرة على حساب الدولة.

- أهذا وعد يا سيدى؟

- اعتبره قراراً.

ثم صحبنى للمحافظ وقدمنى إليه، فكر منى بمكافأة خاصة ومنحة شهرية طوال فترة الدراسة، وأصبح المستقبل أمامى مفتوحاً. الآن صرت من رجال الحكومة، ومسئولاً عن نوعية أعلى. وجاء الاختبار الحقيقى والعملى يوم وصول أهل «دابود» أول قرية نوبية سيتم تهجيرها للموطن الجديد. كان المطلوب منا تهدئة النفوس وترغيب النوبيين فى المكان الجديد، وفروا لنا كافة الإمكانات من حلوى ومرطبات وأعلام وسيارة بمكبر صوت وانطلقت مع زملائى للقرية الجديدة وكانت المهمة عسيرة.. عسيرة.

٢٠

الإذاعة

الداخلية تبث «يا جمال يا حبيب الملايين» ونحن قمنا برشق أعلام الوطن فى الأماكن البارزة وصور الرئيس على أبواب البيوت وأعمدة الإنارة وواجهات المبانى الرسمية وكانت الحكومة كلها حاضرة: المحافظ والوزير والقيادات السياسية، صخب إعلامى هائل. ونحن وقفنا فى صفين عند مدخل القرية واستقبلنا الوافدين بنشيد بلادى.. بلادى. كان قومى يهبطون من العافلات فى تثاقل وضيق وحزن، شبه حفاة، مرضى، متعبين ويتهامسون بالسباب بين بعضهم البعض.. سباب ثقيل موجه للحكومة. بينما نحن نحاول امتصاصهم بالحلوى والمرطبات ونعاونهم على حمل الأمتعة ونرشدهم إلى البيوت وأماكن الخدمات.

لا أخفى عليكم. كل المحاضرات وما قيل عن القرى الجديدة.. انهارت أمام جهامة الواقع.. فالبيوت ليست كبيوتنا، هنا تبدو كئيبة

منفرة وتسد النفس». ومواسير المياه لم تمتد بعد أو حتى الإنارة. حنفية عمومية وحيدة والإنارة مقتصرة على الميدان الرئيسى. ولا أدرى لماذا تذكرتنى القرية بمعسكر تجنيد «متقياده». ومع ذلك، قمت بدورى تماماً كما رسمه لى أمين الشباب. بينما أرنو للقاهرة حيث كلية الهندسة والمجتمع الأرقى، قال لى أحد الجدوبيين مرة: لكى تعيش فى الشمال سعيداً كن سيداً. أما إذا سقطت فى القاع، فى جحيم الوظائف الدنيا، سوف تعانى كل أنواع الصف وتسحق حتى النخاع.

لكن مهمتى كانت تتعقد، فالقوم يدخلون البيوت ويخرجون بسرعة ويقفون أمام الأبواب فى حيرة وتعاسة، وبعضهم كان يبكى، ونفكه أحد المسئين محتجاً:

- لقد نشلونا.

ولابد أننى ضحكت رغم مأساوية الموقف.. فسبنى وسب أهلى. ولكنهم جميعاً دون استثناء لم يكن بوسعهم إبداء أقل مظاهر الاحتجاج.. كانت الكلمة فى أبسط صورها تؤدى للهلاك وكلما سألهم الوزير عن الأحوال كانوا يردون: «الحمد لله مبسوطين وربنا يخلى جمال» وكان بعضهم حين يمر بهم المحافظ.. يغنون:

«جمال يا عبد الناصر. إيوه»

«عبد الحكيم يا عامر.. إيوه»

«يا حبايب اللوبة..»

ووسط هذه الاحتفالية الرسمية المفتعلة، وقع حادث عابر كشف عن حقيقة الحالة، حادث أفزع الوزير والمحافظ والعمدة وأهل القرية نفسها والذين تصوروا أنهم سيتعرضون للعقاب الجماعي؛ لقد اختفى أحد المسنين من أبناء القرية رغم وجود أمتعته مع القادمين، وتعرض العمدة للوم عنيف وتهديد بالإقصاء وربما الحبس إن لم يظهر هذا الرجل. فأين يكون؟ هل سقط من الباخرة في النيل؟ هل تاه في مرسى الشلال؟ هل اختفى هنا عن عمد لإزعاج المسئولين؟ أم هو إضراب عن استلام البيت الجديد؟ أسئلة محيرة فشل العمدة في الإجابة عنها. وقمنا بدورنا بسؤال كل أهل القرية فرداً فرداً.. فنفوا جميعاً أن يكون الشيخ «فضل الله» قد ركب معهم. ومع ذلك قامت داورية للبحث عنه في أسوان والشلال والباخرة نفسها دون جدوى، بل إن فرقة هجانة قامت بتمشيط القرية المهجورة بيتاً بيتاً. وجبلاً.. جبلاً لكنها فشلت في الوصول إلى مكمنه وزعمت الشائعات هروبه للجبل واضمامه لقراقل البشارية وأنه هج إلى السودان وانضم إلى أبناء عمومته في حلفا مستجيراً بهم ولماً وجد نفسه معهم في «خشم القرية» في أقصى الجنوب وهي منطقة أسوأ من كوم أمبو أحس بالتعاسة والغضب مما يجرى في مصر والسودان.. فعاد نادماً وسلم نفسه للسلطات التي حبسته واعتبرته خائناً ولم تكن واحدة من هذه الشائعات صحيحة.. والحقيقة البسيطة أنه أزعج الحكومة فعلاً وأربكها كأول نوبي يعلن العصيان في التاريخ الحديث.. فأين هو؟.

- ٣ -

اجتمع

بدا أمين الشباب وكان عصبياً متوتراً كمعظم المسئولين في هذه الأيام الحرجة الحساسة وأنبأنا بالقرار السيادي الجديد: التوعية في المنبع. فلا فائدة من وجودنا هنا لتوزيع الحلوى والمرطبات. فتم دفعنا إلى قرانا للتعاون مع العمد بشكل تلقائي وطبيعي دون أن يشعروا بأننا مكلفون. وكنت الوحيد من قريتي. أبرقت لجدي وركبنا الباخرة من الشلال؛ خلفنا السد الذي أزعج جدي واسنين وأمامنا النوبة التي زهدناها. وفكرت في وسيلة أتعامل بها مع جدي الذي يصعب اقتلاعه، فهو كالوتد المغروس في التربة العميقة. يا إلهي.. كيف سألين رأسه؟ وإذا فشلت. هل أفقد مستقبلي؟ أسئلة كثيرة كانت تزحم رأسي والباخرة تأخذ طريقها في اتجاه الجنوب.

- ٤ -

الباخرة

تنحرف فى اتجاه «دابود» القرية التى تم تهجيرها رغم استبعادها من الخريطة الملاحية. وبحكم العادة. أطلقت عدة صفارات لقرية كانت ولم تعد. صاح شاب فى وجه القرية متنهداً:

- سلام عليك يا دابود..

- فى ذمة التاريخ يا حلوة..

هاجت الكلاب، نبحت بعصبية، احتلت الشاطىء وقد شمت رائحة البشر وطعامهم. الدور ساكنة، أبواب البيوت بين مفتوح ومواربة ومنزوع. وكأن قوماً كانوا هنا وفروا على عجل خوفاً من خطر داهم، وكأن القرية تعرضت لطاعون أهلك مكانها. خيل إلى رجل يتوارى خلف الصخور. سألت رفاقى فهزوا رؤوسهم نفياً. ربما تخيلت فعلاً.. أنه السراب؛ فمن ذا الذى يغامر بحياته وسط هذه الكلاب التى تلتهم

بعضها! لن تمر شهور أو سنوات حتى تزحف مياه السد وتبتلع كل هذه الأماكن فى جوفها. وبعد مئات السنين سيأتى بواخر الأبحاث وتنقب فى الأعماق لاستخراج الجماجم والأوانى الفخارية ثم يقولون: هنا كانت حضارة ابتلعتها هزة أرضية أو طوفان نوح. سلام عليك يا «دابود». بعد الخزان الأول بنى جدى بيتنا الجديد فوق أعلى قمة جبل «العلياب» زاعماً أن النهر لن يلحق بنا حتى لو بنوا ألف خزان. يا لجدى المسكين.. فماذا سيقول الآن؟ وبأى لغة سأوعيه وأحدثه عن الوطن والمشاريع القومية. يقولون فى أمثال الشمال إن الماء لاتطلع العالى.. فيالأمثالهم الساذجة. أهذا ممكن! النهر الذى عشقناه وقدسناه وعاملناه برفق هو ذاته سيغدر بنا. نعم اتق شر من أحسنت إليه. ليتنا لوثناه واحتقرناه، وصاح شاب مشيراً لحيث توهمت من قبل:

- ودين النبى هناك خيال إنسان يتحرك.. يبين ويختفى.

- تتخيل مثل صاحبنا.

- أرهام.. والله أوهام

- يا جماعة ركزوا جيداً.. انظروا هناك.

- بالتأكيد هو الشيخ «فضل الله».

- وربما لص جاء يفتش عن شىء.

- إنهم ينزعون الأبواب ويبيعونها فى أسوان.

زعق شاب متوتر موجهاً صوته إلى كابينة القيادة:

- يا ريس.. بالله عليك لا توجع قلوبنا، يقطع دابود وأهله والشيخ «فضل الله».

على بعد خطوات رأيت رجلاً غريباً غامضاً يتلصت لحوارنا راصداً القرية بنظارته المكبرة. ليس من سكان المنطقة. هذا واضح من ملابسه الإفرنجية وسمرته الإفريقية. رأيته هناك أيضاً في لحظة استقبال المهجرين وكان محاطاً برعاية رسمية فائقة ومرافقاً للمحافظ..

- من هذا يا جماعة؟

- وما لنا به!

- يبدو غريباً.

- مجرد سائح.

- وهل بين السياح سود؟

- وكأنك لم تشاهد زنجياً أمريكياً.

- لست مطمئناً إليه..

- لا تشغل بالك..

رغماً عني، احتل الرجل حيزاً من تفكيري، راقبته وهو يصور، يتودد، يتحاور، وهو يرصد الأشياء بنظارته، وهو يتحدث بلغة عربية سليمة، وكأنني أود إمساكه بشيء ما. ربما لأنني في محاضرات التوعية سمعت عن الجواسيس والعملاء وخلال الساعات التالية أحدث هذا الغريب في داخلي تصدعات وشروخاً وكاد يقتلعني من جذوري ويجردني من ملابسي ويتركني عارياً أمام التاريخ. حتى تمنيت قتله.

- ٥ -

حين

استدارت الباخرة لمواصلة رحلتها، قفز أحد الكلاب في النهر، سبح محاولاً اللحاق بنا، تجمعنا عند المؤخرة، نشجعه، نصفق له، نناديه، سبح بقوة وإصرار، دوامات الرقاص تعوقه، تعب، حاول الرجوع، فشل، خارت قواه، غطس ثم طفا، غطس تاركاً مكانه دوائر ماء. غرق. جاء ينشد الألفة والأمان فراح طعاماً للتماسيح. تذكرت كلبي. أحسست بدوار، باختناق، بكيت. جذبوني بعيداً، سقوني ماءً. أحاطوني مهدئين. تصوروا بكائي على مصير الشيخ «فضل الله» فقال أحدهم محتجاً:

- تجلد يا زول.. نحن هنا أو هناك في وطننا، وهذا العجوز الأحمق سيهلك.. هذا جنون.. منتهى الجنون. رغم احتلال الشيخ مساحة هائلة من تفكيري خوفاً من أن يقلده جدي، إلا أن مصير الكلب كان صاعقاً على وجداني، أشرت لهم إلى حيث غرق..

- مجرد كلب.

- أول مرة نشاهد من يبكي كلباً.

- عجائب يا زمن.. لم يبق سوى الكلاب لنبكي عليها.

- يا جدع.. كن رجلاً.

- كيف اختاروك في «الطليعة».. يا «طري».

- ومتحوك درعاً؟

مرتعشاً كنت، أنتفض، كلبي تذكرته، كان جروا، ربيته، أطعمته قوتي، دربته، كبر على يدي، صار ذكياً، يشم رائحتي على بعد ساحق، يأتي للمرسى وينتظرني، يبكي حين أسافر، يتقافز ويرقص عند عودتي، يحرسني ليلاً، يلازمني نهاراً، يتصدى بشراسة لمن يتعارك معي، عض جدي حين ضربني، الأولاد يهابونني بسببه، صرنا معاً كياناً واحداً مثل الأعرابي وجمله. فهل أدعه لهذا المصير المفزع؟! سأنقذه مهما تجشمت من عناء. قال أحدهم مستهجناً:

- تعالوا يا شباب الدوبة.. شوفوا هذا الـ (فافي) الذي صار كالخواجات الذين يتعاطفون مع الحيوانات دون البشر.

- يا زول وفر دموعك.. أمامك أيام ستبكي فيها حتى يجف منك الدمع.

وقال شاب بحماس:

- هيا شباب الديل.. دعونا من الأحزان.

- وماذا نفعل؟

- دقوا الكف.

- سنقيم عرساً.

- نغني.

- هيا بنا نرقص.

- نعم.. أراجيد*.. أراجيد.. أراجيد.

بغتة، بلا سبب منطقي ولا إعداد سابق، تحول سطح الباخرة لساحة عرس، كتلك التي تقام في قرانا، تصفيق قوي.. إيقاعات منضبطة بالأقدام:

«هيلي.. هيلي.. هلا

هالا.. هالأ..حلاوة يا.. أيوه حلواني

حلاوة يا شربات

حلاوة يا شربات».

استعار شاب شال الدوبية الوحيدة معنا ورقص كأجمل النساء. البحارة تحمسوا فأتوا لنا بدف وطنبور، تدفق الدم حاراً في العروق وارتفعت الأصوات قوية هادرة تغني للسمراء الجالسة عند الشاطئ، تنتظر حبيبها المهاجر: أسمر اللون يا أسمر اللون.

وجاءت سائحة إنجليزية تركض ووقفت تصفق وتهتف:

* الأراجيد: رقصة نوبية شعبية جماعية.

- بيونفل.. بيونفل.. أى لايك.

كانت تهتز بفستانها القصير وصدرها المكشوف وجسدها الناصع البياض فبدت كالبدر وسط ظلام دامس، ارتفع حماسها لدرجة الهوس فجذبت الدوبية الجالسة فى حياء وانغلاق ودخلت بها الساحة عنوة:

- كمون.. كمون.

واكتمل الفرح بامرأتين من لحم ودم. فتحمس باقى الشباب؛ من كان متحفظاً.. خرج عن جموده، من كان حزيناً.. فرح. من كان يفكر فى المصير المقبل.. نسى. ونسيت الشيخ «فضل الله» وكلبى فقمت منشداً:

«عاشق الحبيب صلى عليه
صلى صلاتك يا محمد».

رقصت كما لم أرقص من قبل. الباخرة كلها ترقص.. تتمايل، حالة من حالات السمو الإنسانى النبيل.. اندمج الجميع فى رقصة «الأراجيد» «الكلوز» «الفاندجا» «المعس» «السكوتة» «الدناقلة» وحتى السودانيون الذين من أصول عربية، حتى إخوتنا عرب «العليقات» حتى عمال الباخرة من أهل الصعيد والأجانب من ركاب الدرجة السياحية وربما الأسماك والتماسيح. وجاء «الغريب» وقف فرحاً، منتشياً زاد حماسه فطق الكاميرا ونزل وسطنا. كان بارعاً، متمكناً، تفوق علينا فأفسحنا له الدائرة فغنى بلغة ليست مثل لغاتنا وإنما شبيهة بها. واحد من زملائى فى «منظمة الشباب» تذكر دوره السياسى فأنشد:

«هلا لون يا لون
لونه يا لون لونه
جمال يا عبد الناصر
أيوه
عبد الحكيم يا عامر
أيوه
يا حبايب النوبة».

وما حيرنى فى هذا العُرس التلقائى الجميل سوى أمر هذه البنت النوبية، كانت معنا من البداية، منزوية خجلة فى ركنها الحصين ولم تلفت أنظارنا، مثل أى شىء نملكه ولا ندرك قيمته. مجرد بنت مثل كل البنات، نعاملهن بحذر ويتعاملن معنا من خلف جدار، والآن حين رقصت فى هذا الدوقيت وفى هذا المكان تبدو كأجمل الجميلات. وأجمل من الخواجاية ومن بنات مصر، منات القرون مرت ونحن هنا فى هذه البقعة من العالم، نلعنها ونضيق بها والآن حين بدأنا نفتقدها.. نشعر بقيمتها وجمالها. «أراجيد» المزيد من الأراجيد، وحين وصلت الرقصة لذروتها، تحمس القبطان وسرت إليه العدوى فأطلق صفارات الباخرة على أنغامنا:

«توت.. توت
يا نوبة
توت.. توت

يا حبيبة
توت.. توت
بالسلامة
توت.. توت
الوداع.. الوداع.. الوداع.

٦٠

حين

دنت الباخرة من مدخل القرية التالية، توقفنا حتى لا يظن أهلها بنا الظنون. فليس هذا موسم الغناء والرقص، بل موسم الحزن والرحيل.

جلست أستريح مسائلاً نفسي: ما معنى هذا؟ ومن يكون هذا الغريب الذي شاركنا عرسنا المجنون، ونفوق علينا؟ عدت لأحزاني. كلبي المسكين والشيخ «فضل الله» المتمرد يبين كالخيال المعلاق محتضناً القرى ومنهماً إيانا بالسلبية والخضوع، كنت أراه مرتسماً في كل الوجوه والصخور والمعابد والنخيل، أنظر إلى الذيل فأراه تمساحاً، اختلس النظر للبنت.. فأراه، أغمض عيني فأجده داخلي. أهرش فأحس به في جلدي. لا يبكي أو ينوح إنما - للغرابة - يرقص الأراجيد.

المهمة فعلاً عسيرة، فلابد أن أخباره تواترت للقرى والنجوع. عليك اللعنة يا شيخ «فضل الله».. تكاد تفسد مهمتي، فمن السهل إقناع البنات

والنساء والشبان.. لكن ماذا نقول للمستبدين؟ وكيف أضحك على جدى وأسور له البلاد الجديدة بالجنة الموعودة؟ يكفى علمه ببعد النهر عن البيوت مع أننا كائنات نيلية. دائماً تسبح؛ حين نغضب أو نفرح، نطفئ ثورتنا بالماء، دائماً فى الماء من الشروق للمغيب، لو قلت لجدى صراحة عن الأحوال هناك، لن ترضمه قوة على الرحيل حتى كتيبة من الهجانة، فجدى والنهر كائنان متوحدان. كان خزان «أسوان» البداية وسدها النهاية؛ بدا ماء هائلان شيدا لضبط المياه ونشر الرخاء دون أن يخطر على بال المخططين.. أنهما سيسببان ألماً لقوم ووجعاً لقلوب. وقد علمونا فى المدارس حب الوطن والدفاع عنه والتضحية من أجله. لكن لماذا لا يضحى الوطن من أجلنا أم هو عطاء من طرف واحد؟! وكان الذين يحاضرون فى معسكر منظمة الشباب من أبناء الشمال الذين لم يخسروا شيئاً سوى بلاغة اللفظ. كلام فى كلام. هؤلاء القوم يجيدون الثلاثة بالألفاظ وسأتوب عنهم فى الضحك على جدى وأصنع له من القميح شربات و«أنيس البوصة تبقى عروسة» هكذا تعلمنا منهم؛ التلفيق. وقد منحونى درعاً من الوهم ووعداً هلامياً بلا سند قانونى.

حاول الشبان إقامة عُرسهم من جديد حين بعدت الباخرة عن القرية لكنهم صمتوا. وكأن الذين غنوا ورقصوا من قبل.. قبيل من الجن احتلت الباخرة اللحظات ثم تبخرت. لا أحد يضحك أو يغنى، لاذ كل واحد بهمومه مفكراً بما كان وسيكون، كل واحد له ذكريات مع الأرض والنهر والجبل والمرح والأحلام. وكأن فرحتهم كانت مجرد حالة

عارضة. غنوا بشجن، رقصوا الأراجيد بحماس.. لكنها كرقصة فراشة حول ضوء ساخن.. انسحب ركاب الدرجة السياحية واستمر الغريب بيننا، متوحداً، منقرباً، محاوراً. وكلما رست الباخرة أمام قرية سأل عن اسمها ملتقطاً صوراً للبيوت والناس والجبال والنخيل بينما الباخرة ترسو وترحل فى صمت، زمان كانوا يستقبلوها فرحين، فدائماً تأتى بمغترب أو عريس؛ محملة بالطرود والرسائل وكانت رمزاً للخير وجمع الأحبة. الآن صارت مصدراً للشر والاقتلاع من الجذور. فكرت.. ماذا لو وقع زلزال وسد مجرى النيل أو نبتت جزيرة طينية وأعاقت الملاحة؟ كيف سيهجرون الناس؟ القطارات تتوقف عند «أسوان» والمدارس العليا فى أسوان والمستشفيات والإنارة والحكومة نفسها وكأننا لسنا من المواطنين.. والآن يحدثوننا عن الوطن «وكنتم فين من بدرى». وحين صدوا أعمدة التلغراف. كانوا يقصدون تصدير الأوامر لنا والإحاطة بأحوالنا. أليس غريباً أن الوسيلة الوحيدة التى تربطنا بالوطن.. هى هذه البواخر العتيقة المملوكة للسودان؟! فهل يصدقنى جدى حين أزين له هذا الوطن؟ ونحن معزولون عنه حتى بطريق ممهد للسيارات.. فمن فعل بنا هذا؟ ومع ذلك قررت بدء مهمتى القومية بمراقبة هذا الغريب. سأمسكه متلبساً بالتجسس وأسلمه للسلطات وأحصل على وسام. ولكن على ماذا سيتجسس علينا؟ لا مصانع ولا موانئ ولا معسكرات جيش. هو جاسوس.. لكن أين الدليل؟ لا بأس من التلفيق، سأزعم أنه كان يدس مادة فى النيل لتسميم أهل الشمال. أو كان يحرض الناس على العصيان وهو المتسبب فى تمرد الشيخ «فضل الله»! إنما المحير فى

أمره؟ لماذا كان محاطاً برعاية رسمية؟ حتماً ليس من رجال الحكومة ولا من أبناء منطقتنا لا شمالي ولا جنوبي. أعرف الوجوه والأزياء، هو أجنبي الزي، أفريقي اللون، تابعته وفحصته ودققت في وجهه. فقط لو أعرف من يكون؟ وماذا يبتغي عندنا؟. هو الذي اقتحمني، تقدم نحوي بقميصه المشجر الحريري، وسرواله القصير، والسلسلة الذهبية المدلاة على صدره المفتوح. وقبعته والطيون في فمه. مد لي يده الضخمة مصافحاً ومتسائلاً:

- الأخ من «كيشي»؟
- هذا اسمها القديم.
- أنت منها؟
- ولي الشرف.
- سألت عنك فدلوني ورسمت فيك الذكاء.
- خيراً؟
- خير طبعاً.. ماذا تظن؟
- بل أظن!
- تظن ماذا؟
- أنك شخص مريب.
- مريب؟! هذا شيء مضحك.
- نعم.. لدينا حساسية ضد الغرباء.
- لست غريباً.
- لاتقل أنك من اللوبيين المهاجرين؟

- لم أقل بهذا.
- ماذا إذن؟
- سنتعارف خلال زيارتي لقريتكم.
- أهلاً وسهلاً.. وماذا تطلب عندنا؟
- رحلة استكشافية.
- ليس لدينا معالم سياحية ولا قواعد عسكرية.
- أنت واسع الخيال.
- بل شديد الذكاء.
- هذا غرور.
- يا سيد.. ماذا تريد في قريتنا؟
- عندكم شيء هام أسعى إليه.
- وما هو؟
- معمر يعيش في قريتكم.
- ومن يكون؟
- اسمه «كنُّود».
- كنود؟
«كنُّود شكنده جدكاب».
- تقصد كنود «الأزمود»*.
- ربما
- هو عندنا ولكنه على حافة القبر.

* الأزمود: الرماد المتخلف من حطب الوقود.

- عظيم.. هذا من حسن حظى.

- وما أدهاه؟ فهذا رجل لا يحل ولا يربط، كان حى بالصدفة، قعيد مريض، مشوش، جثة تتنفس.

- كيف أفسر لك، لا أدرى، عموماً، ستكون معى ودليلى.. وسأكافئك.

- لا نتعامل بالأجر.

- لن نختلف..

غريب فى ديار النوبة.. ماذا يروم يا ترى؟ يغنى ويرقص معنا ومثلنا، يتحاور ويحاول الغوص فى الأعماق البعيدة وجاء باحثاً عن رجل من المهمشين، بلا قبيلة ولا مال. وتسميه «أرمود» تحقيراً لشأنه، يخشاه الكبار ويظنونه حاسداً وساحراً. يتجنبه الصغار ويتعوذون بالغول، وعائلتى تقاطعه منذ ما قبل ولادتى لسبب مجهول لى. هاجمتنى الشكوك فسألته مرتاباً:

- مستر.. من أنت؟

- بنى آدم كما ترى.

- أقصد من أين؟

- إنجليزى الجنسية، سودانى الأصل.

- أنت سودانى.

- ومن جبال النوبة.

- جبال ماذا؟

- النوبة.

- وأين تقع هذه الجبال؟

- فى الغرب.

- يعنى داخل السودان.

- تماماً.

- هذا غريب.

- ونوبى مثلك.

- نوبى؟!

- ونحن الأصل وأنتم التقليد.

- أنت نوبى وأصلى؟

- نعم.. ما وجه الغرابة؟

- النوبيون فى السودان هم «الحلفاوية» و«السكوت» و«الدناقلة».

- هؤلاء أيضاً تقليد مثلكم.

- سيدى.. هل أنت فى وعيك.

- وهل ترانى سكراناً؟

- أنتم الأصل.. كيف؟!

- نحن نعتقد ذلك؟

- تعتقدون؟ وعلى أى أساس؟

- عن يقين.

يا ربى. يعتقدون! من هم؟ وهل توجد فى السودان جبال منسوبة للنوبة غير جبالنا المعروفة؟ الرجل بالتأكيد يمزح ويحاول التشويش على ذاكرتى وتخريبى لغرض فى نفسه.. فمنذ ركبت هذه الباخرة فى

رحلاتي الدراسية إلى «أسوان» عرفت من خلال ركابها كل قصائل النوبيين؛ «الكنوز» و«الفادجا» في الشمال و«العرب» بينهما ثم «الحلفاوية» و«الدناقلة» في السودان، بعمائمهم وجلابيبهم البيضاء واللغات الأربع المتقاربة. أبداً ليس لهذا الغريب علاقة بهؤلاء ولا قرأت عنهم ولا ذكرهم جدي. حتى لونه مختلف عنا فهو أقرب للسواد الزنجي منه للسمار النوبي، شعره أكرد ولكنه ليس زنجياً مثل من رأيتهم في فيلم (طرزان)، أنفه عادي، لكنه قصير نوعاً، وقوي، وما زلت حائراً.

- تعتقدون؟

- أنت لا تصدق.

- وهل ترقصون «الأراجيد»؟

لذا رقصاتنا.

- وهل لديكم بيوت مثل بيوتنا.

- كل البشر يسكنون؛ قد تكون أكواخاً، عششاً، جحوراً، كهوفاً أو بيوتاً مثل بيوتكم الجميلة.. ماذا تظننا.. نتعلق بين السماء والأرض.

- كنت أظنكم تعيشون عراة في الغابات.

- معلوماتك مشوشة يا فتى.

ولكم لغات مثلنا.

- بعد الجبال.

- يعني أنتم غير الجنوبيين.

- يا ابني نحن أصحاب حضارة «مروي» و«نباتا» و«كوش»، و«كاشتا» و«طهراقا» و«بعنخي» منا، ونحن الذين تصدينا للغزاة والعرب

والمماليك. كانوا يصلون إلى «دنقلة» ولا يتوغلون. والعرب الذين هزموا الفرس والروم.. أوقفناهم، وللتاريخ، لم يكن لقومي فضل كبير في وقف الزحف العربي.. لأن الجنود العرب لم يجدوا ما يحفزهم على مواصلة الزحف.. لا فيء ولا أسلاب ولا سبايا جميلات، لكنهم كانوا قد نجحوا في زوع قبائلهم في الشمال هذه القبائل أخذت تغور عنينا بين وقت وآخر، تخرب بلادنا، وتسبي أولادنا، ليقايضوهم بالطعام تنفيذاً لاتفاقية «البقط» اللعينة المهينة. كل عام كان ينقص منا ٣٠٠ رجل فتقوم قومي بالجبال وتحصنوا بها خوفاً من الجلأية ومنكم. هكذا كافأتمونا بعد أن تركنا لكم صفحات مضيئة تتفاخرون بها وتتاجرون على حسابنا. وفي النهاية تنكرون وجودنا وتحاولون نفيا من التاريخ الذي هو تاريخنا. أنتم أبداً لا تعانون مما نعاني، يكفي في هذا الصدد أنني تعرضت لمحاولتي اغتيال في روما وأسمرة. وفي آخر زياراتي لموطني وقعت قلاقل واشتباكات بين القبائل والحكومة ولم يكن لي يد في الموضوع، لكنهم اعتبروني محرضاً وحكموا عليّ بالإعدام. لولا زوجتي المصرية.

- زوجتك مصرية.. كيف؟

- نعم ومن أسرة قبطية عريقة.. كانت تلعثني في إنجلترا، المصريون يا ابني قوم متسامحون وكما حدث مع «نكروما» و«فتحية» المهم.. لم تسكت وقادت حملة دولية مكثفة لإنقاذي، اتصلت بالبابا وملكة إنجلترا والأحزاب السودانية وجمعيات حقوق الإنسان ولما أخفقت لجأت للعظيم «عبد الناصر» هو رجل قوي ومحرر وله نفوذ.. تدخل

المعرفة فالقرآن الذى نطوه لم يذكر لنا عن قوم هذا الرجل وملوكهم «سهراقا» و«بعنخى» و«كاتشا». مع أنه ذكر «ذو القرنين» و«أبرهة» و«يأجوج» و«مأجوج» و«نوح» و«فرعون» و«آل موسى» و«قابيل» و«هابيل»... وكتب التاريخ التى درستها تجاهلتهم. فهل هو تاريخ مزيف أم أننى أمام محتال؟

ومع ذلك، ما زالت هناك بقية من حوار تعيد ترتيب المسائل. سألته متحدياً:

- سيدى... لدى بعض الإيضاحات؟

- إننى أسمعك.

- عفواً... ما اسمك؟

- كتبه «تيما كودانى».

- كتبه؟!

- ألا يعجبك؟

- هذا ليس اسماً نوبياً.

- وما الأسماء النوبية؟

- كلها معروفة.

- مثل.

- اسأل ركاب الباخرة.

- وأنت ما اسمك؟

وكأننى توقعت سؤالاً كهذا وسط حوار عبثى، يديره غريب، التقى به مصادفة، فى توقيت فاصل من رحلتنا البشرية، وكمن يلقى بقصيدة

بثقله فأنقذنى وأنا مدين له برقيدى... ولكنهم كانوا قد منعونى من دخول السودان وما زلت. ففصلونى عن أهلى لكنى أتواصل معهم بالرسائل وحملات الإغاثة الدولية. ودائماً التقى بـ «عبد الناصر» حين أزور القاهرة وأمتثل لنصائحه فى الحفاظ على وحدة السودان.. هو رجل وحدوى ولا يناصر الشعوبية وحركات الانفصال.. قد أختلف معه ولكنى أحترمه جداً وقد ساهمت فى حملة إنقاذ (آثار النوبة) وتشاورنا معاً فيما يخصكم عند بدء مشروع السد. كانت هناك عدة آراء، نقلكم إلى مشروع (مديرية التحرير) أو توزيعكم على المحافظات أو كما حدث بعد بناء (خزان أسوان)، أى منحكم تعويضات وتركككم تقررون مصيركم، لكننا اتفقنا على المكان الحالى... عن كثب من الجغرافيا القديمة وبنفس التركيبة السكانية حتى يحافظ على هويتكم. بعضكم الآن يحتج على هذا النقل وتريدون التقوقع فوق الجبال.. تلك الخطة البشعة التى ارتكبها قومى. انفتحوا على العالم واختلطوا بالحضارة. ماذا هنا؟ الشيخ «فضل الله» هذا الأحمق ليس نموذجاً. قومى حتى الآن عراة وثليون. أما أنتم، فظروفكم أفضل لوجودكم عن كثب من مصر و«عبد الناصر» هذا رجل عظيم ولا أدرى لماذا تكرهونه؟!

بالتأكيد لست أصماً والرجل يتحدث بلغة عربية مفهومة لى ولا توجد شوشرة تعيق الالتقاط. وكنا وحدنا فى مؤخرة الباخرة وكل الظروف مهيأة لحوار هادئ. ومع ذلك فشلت فى استيعاب جملة واحدة سليمة ومتماسكة.. فإما أننى أمام مخبول أو بنقصنى الذكاء وضعل

شعر، حفظها عن ظهر قلب، رددها مرات، في مناسبات مختلفة، وكما لقنني جدي، منذ طفولتي، قلت بثقة واقتدار: اسمي «عبد الله»، «علي»، «محمد»، «حسن»، «أحمد»، «عواض»، «موسى». اسماً وراء اسم، حتى نهاية الشجرة المباركة: «عون الله»، «شرف الدين»، «نور»*.

- ألا تتوغل؟

- إلى أين؟

- لأ بعد.. لأعمق.

- هذه شجرة عائلتنا كما علمني جدي.

- وهذه ليست بأسماء نوبية يا شاطر.

يا ربي. إخسف بهذا الرجل الأرض والذي لا يعجبه أسماء أمة المسلمين.. أمة محمد. يا ربي.. افعل شيئاً في هذه اللحظة الحاسمة. الهول. الهول «وهذه ليست بأسماء نوبية يا شاطر»، قالها ببساطة، بهدوء مستفز وهو يحشو غليونه ويلفث الدخان في وجهي. وكان يبتسم. بدا منتصراً، مزهواً، بعد أن هز قناعاتي وزلزل الأرض من تحتي، فأحسست كأنني معلق في الفراغ. يعذبني. ورغم الملمس الشتائي المعتدل، شعرت بسخونة وطنين ودوي هائل ورغبة وحشية في الصراخ والشجار تمنيت لو ملكت قوة تساعدني على إلقاء خصمي في النيل. خيل إليّ أن سحابة سوداء قادمة من الجنوب البعيد قد أطبقت على «نوبتنا» فتشوهت المعالم والآثار والنيل والبلطى

* نور ابن.

والتماسيح. هي القيامة. فلا أبي هو أبي ولا أمي «آشة همد»* وبعد كل هذه السنوات من الزهو والذبات سرت مجرد حفيد سبية كان يتسرى بها عربي. ملعون أبوك يا حقير. أو واحد من الكشاف الأتراك أو مملوكي هارب. هنا سخف وتخاريف رجل مغرور متحامل. نحن النوبيين رغم أنفك لا زلنا نرقص «الأراجيد» ونملك النيل والمعابد وأنتم تعيشون عراة فوق الجبال.

انتابني دوار وإحساس لم يكن واضحاً في البداية، ثم بالتدريج تبينته حين تمالكت وخرجت من الصدمة. وحددته.. إنه الهلع، هلع مدمر وفظيع. تساءلت فزعاً:

- ماذا قلت يا أنت؟

- أرد عليك.

- أعده على مسامعي لو سمحت.

- لقد سمعتني جيداً.

- ولكنك تشكك في الثوابت.

- ثوابت؟

- ما توارثناه.

- أكاذيب لحساب الآخر.

- من الآخر؟

- عرب وأتراك ومماليك.

* آشة همد: عائشة محمد.

- قلت أكاذيب؟

- وتشويهات متعمدة.

- أجدى كذاب؟

- جدك بيفاء.

- كيف.

- أتعرف من هو الأمير «نجم الدين» الذى أوقفتم عنده سلالتكم؟

- هو جدنا.

- إنه أحد أمراء قبيلة «ربيعة» العربية.

- أليس من أشراف القوم؟

- بلى.

- ماذا إذن؟

- لا اختلاف فى هذا. لكن أين جذوركم الفرعونية والنوبية؟

أين «رمسيس» و«نفرتارى» و«طهرقا» و«كانتشا»؟ قل لى.. أين؟ أنتم هنا تتفاخرون ببنى «الكنز» وهم هناك «مجراب» و«مرداب» و«كشاف». لقد اختزلتم التاريخ فى العرب والأتراك والمماليك وتجاهلتم من سبقوهم.

- لا أدرى.. جدى سيفيدك.

- عدنا لجدك.

- هو شيخ عرب ورجل عظيم.

- بل أكذوبة.

- من فضلك.

- أقصد ان يضيف جديداً.

- ماذا تريد؟.. أفصح!

- دعنا من كل هذا الهراء، فليس هناك شىء موثق. إنس كل ما قاله لك وعش على قناعاتك السابقة وأهنأ بها.. فليس ثمة كعكة نتعارك عليها، جبال فى جبال وسخام فى سخام، هو تاريخ ناقص، مشوه، مسكوت عنه.

- وما التاريخ الحقيقى فى نظرك؟

- أبسط قول أننا وأنتم من أصل واحد رغم غروركم. فنحن على الأقل أخوالكم لأن بناتنا السبايا هن جداتكم وقد قمن بدور كبير وجليل فى تذويب أولادهن وأزواجهن والمحافظة على تراث النوبة ولغتها.. فلهن الفضل فى بقاء سلالتنا بشكلها الحالى.

تنبهت والباخرة ترسو أمام قرية «جرف حسين» ومعبدها الشهير بالبر الغربى أو «تنجار»* وفى البر الشرقى أو «مالتى»**، «كيشى» قريتنا والأمور ما زالت ساخنة ومائعة والمعركة ما زالت..

كان واضحاً مدى إعجابه بالمعبد. نعم.... عشرات الأدلة فى صالحى وهذه المعابد المتناثرة على ضفتى النيل.. أهمها، فهى تؤكد أصالتى وتوبيخى. قلت للغريب بزهو مبالغ.. لأغيظه:

* تنجار: غرب.

** مالتى: شرق.

- هذا بناء أجدادى.

- أجدادك!

- أتشك فى هذا؟

- مليا.

- لاتقل أجدادك.

- لا تقولى يا فتى.

- من إذن؟ العفاريت أم قوم هبطوا من السما؟

- كل معابد النوبة السفلى بناها الفراعنة وأشهرها معابد «رمسيس» فى «أبى سمبل».

- الفراعنة؟!

- نعم.. لأن السيد «عون الله» ابن الأمير «شرف الدين» لم يكن بناءً. ولا آثار له عندكم ولو وجد وسيلة لهدم هذه المعابد لهدمها لأنها فى عقيدته من الأصنام فحضارة العرب شعر وقرآن ولغة.

- كأنك تجردنى من ملابسى.

- حتى لا تتنكر بملابس غيرك.

الباخرة تستدير فى طريقها إلى قريتنا، تشق النهر فى سهولة وانسياب. ونهر الشتاء دافىء شفاف وآمن. لا طمى تغوص فيه الأقدام حتى الابتلاع ولا فيضانات عالية تكتسح وتدمر. حتى التماسيح تنسحب للمستنقعات الجنوبية والخيران. كنا ونحن صغار نعشق نهر الشتاء للسباحة واللهو دون مخاطر. بينما الكبار يحبون نهر الصيف لزراعة وصيد الأسماك ويبتهلون إلى الله حتى يفور مهندس الرى الذى

يشرف على عيون (خزان أسوان) لكى يتمكنوا من الحصاد. فقومى كانوا يزرعون ولا يحصدون إلا نادراً حين يقومون فى الشمال بتخزين مياه الفيضان فيرتد إلينا ويداهم ذراعتنا على غير توقع. أما جدى، نمساح الجنوب والسباح الشهير وصائد التماسيح؛ فالنهر مأواه صيفاً وشتاء، لا يخرج منه إلا فى أوقات الصلاة والطعام والمهام العاجلة. كان يحب النهر بعد الله.. وأحياناً يسبه ويشتاق بالنهر. ولو رأى طفلاً يتوثب بالنيبول.. طاردته وكواه فى شيته. فالنيل عند الشماليين مجرد حاجة. منفعة. أما عندنا.. فهو نعمة وقيمة. نيل جدى هو نيلنا، وهبة الله لنا من دون العالمين، ليس له علاقة بالفراعنة والعرب والممالك والأتراك، وقوم «كنتة تيما كوناى» هو نيل النوبيين دون منازع مثلما «كيشى» هى قريشى و«أشة همذ» أمى. ثوابت لاتقبل المساومة والشك والجدل..

- هذا نيلنا.

قلتها له واثقاً حين رأيته يتابع باهتمام أسراباً من سمك (البلطى) فرد باستخفاف:

- نيلكم؟

- بلا جدال.

- وما الدليل؟

- يقبع عندنا فى أمان منذ آلاف السنين.. لا هجرنا ولا هجرناه.

- ألم تقرأ الجغرافيا يا شاطر.

- وما تقول؟

- النيل ينبع من الجنوب وله روافد متعددة ثم يصب في الشمال، وخلال رحلته الطويلة يمر ببلاد كثيرة بينها بلادكم.. وأنتم مجرد مجرى.. طريق.. فهو ليس نيلكم ولا نيلنا. إنما نيل كل البلاد الواقعة في طريقه. على المشاع. فكيف يكون نيلكم؟! فلا أنتم المنبع ولا المصب. هه.. قل لي.. كيف؟!

يا ربي. «ويعدين معاه ابن الـ .... دا؟». يكيدني ويغيظني ويكاد يفرسني. فلماذا اختارني من دون كل هؤلاء الركاب؟!

والباخرة تدنو من قريتنا، لمحت عن بعد رءوس ثلاث نخلات تبرز من مدخل خور «الطياب». هي كل ما تبقى من منبحة (خزان أسوان). مئات مثلها غرقت وكانت تطرح أجود أنواع «التمر»: «اللجاو» و«السكود» و«الأجوندية». ألفيت في وجه الغريب بالورقة الأخيرة.

- تلك نخلاتنا النوبية.

- من قال؟!

- أفي الدنيا مثلها؟

- غابات تخيل في أركان الأرض وليست النخلة نوبية الأصل. هذا رجل ضال مضل مدسوس علينا لتشويهنا وتدميرنا.. فماذا أبقى لنا؟ تساءلت متهكماً:

- والأراجيد أيضاً ليست رقصة نوبية؟

- هذه لكم.

الحمد لله. حسبته سيقول رقصة زنجية أو عربية أو حتى مصرية. إذن هو يعترف بوجود شيء يخصنا. لا بأس. ورغم أنفه فجدي قيمة كبيرة لقد علمني أشياء آمنت بها رغم تواضع مطوماته.. فهو يستقي ثقافته من الواقع المعاش ومن القرآن. لا أبحر شمالاً ولا جنوباً ويعتقد أن النيل يأتي من السماء كهدية إلهية لنا ونحن نجود به على أهل الشمال. ويرى النعماح أكبر وأقوى كائن مائي رغم وجود حوت «يونس» في نصوص القرآن. والضبع وحش خطير ولم يسمع أو يبصر الأسود والنمور ولا شاهد أفيال «أبرهة». والمعابد التي يتوافد عليها الناس من البلاد البعيدة لمشاهدتها مبهورين لم يدخلها في حياته لأنها من بيوت الكفار وشواهدهم. ولا سمع عن «رمسيس» و«سنفرو» و«بعنخي» و«طهراقا»، فهو لا يعرف غير «فرعون موسى» ويعتبر أهل الشمال من آل فرعون.. جبابرة طغاة. جدتي والنيل والقرآن شيء واحد. ربنا قال وربنا أباح وربنا منع.. غير هذا لا يكون. وعندما أنقل له معلومة جديدة؛ يفزع، يستغفر، يراها من علامات الساعة. وأنا أحبه رغم انغلاقه وجهله ودروشته؛ فهو طيب، مسالم، كريم وفوق كل هذا.. فهو في نظري نوبي قلباً وقالباً وصاحب المكان وليس أكذوبة كما يزعم صاحبنا الذي جاء يشوش علينا.. لكني لن أدعه يبث سمومه بين أهلي. سأمسكه بالقوة ولا مفر من قتله مع أنذا قوم لا نقتل كما أمرنا ربنا وينبغي مواجهة هذا الذي يزنّ كالدبور. القتل القتل. ورغماً عنه.. هذه معابدنا، لا يهم من بناها.. لكن اسمها معابد النوبة. وهذا نيلنا.. ينبع من الجنوب أو الجحيم.. لا يهم.. لكنه يندفع إلينا هادراً بطميه وخيره

رفيضانه.. فنفسح له الطريق ونقدم له أراضينا فيقام عندنا آمناً، نحنو عليه ونفدى له: تيل يا تيلا، ونعامله بتقدير وتقديس ولا نلوثه بمآلنا النذر ومخلفاتنا السامة. وهذه لغتنا، قد تكون حروفها مجهولة الآن.. لكننا في انتظار «شمليون» آخر يفك طلاسمها حين يعثر على حجر في «إدريم» أو «قسمطل» أو «كوبان» أو «حلفا» فيذهل الدنيا باكتشافه. أما «كتبه تيما» هذا فهو محتال.. بموته تنتهي أكاذيبه.

سمعت نباح كلبي عند الشاطئ، فأدركت أننا وصلنا لقريتنا.

٧٠

هذه

«كيشْى» الجميلة الهادئة، تطل على النيل من عليائها في شموخ وكبرياء «كيشْى» الأمان والمودة وحسن الجوار بين الكلوز والعرب. الأغاني والأفراح وبنات «الكلوز» بسمارهن وشفاههن الموشومة وأقدامهن المخضبة بالحناء. «كيشْى» الماضي والحاضر.. وبلا مستقبل، فبعد شهور أو أعوام ستغمرها مياه السد وتصبح في خبر كان. «كيشْى» جدي وأمي وجدتي «ذهبية إسماعيل» و«زينب إدريس». «كيشْى» الحكايات والأساطير والعائلات العريقة؛ «آل عوض موسى»، و«آل إسماعيل» و«آل كرار» وآل.. آل. «كيشْى» يا حبيبتي رغم شهرتك كقرية آمنة، ستكونين مقبرة لهذا الغريب. أبداً لن يقلت أبداً.. أبداً. نزلت وهو خلفي وجدي عند الشاطئ يحماره الشهير وكلبي يتقافز فرحاً.. يكاد يطير.. فهذا شأنه كلما سافرت وعدت، جدي يحتضنني. يرفعني محتضناً وكلبي يحاول الفصل بيننا، يزوم غاضباً فهو أحق الكائنات للاحتفاء بي.

- لماذا تركت دراستك وعدت؟

- لأكون معكم يوم الرحيل.

- مرحباً..

قدمت له الغريب، فسلم عليه بحرارة كعادتنا ثم انتحى بى جانباً وسألنى حائراً:

- من يكون؟

- ضيف.

- ليس من عندك.

- هو ضيف القرية.

- وماذا يريد عندنا؟

- زائر عادى.

- من الحكومة؟ طبيب؟ موظف إحصاء؟

- وهل يبدو شمالياً.

- فى هذه الأيام يمر علينا أشكال وألوان من البشر؟ ولسنا فى وضع يسمح لنا باستضافة الغرباء وحمايتهم.

حكى لى جدى مرة، أنه فى الزمن القديم كان البعض يفرون من الشمال بعد الاشتباك مع الحكومة فى طريقهم للسودان وبالذات من أهل الصعيد، يمكثون عندنا أياماً يستريحون ثم يواصلون رحلة الفرار. وكان بينهم أغراب مثل الصماليك وغيرهم وكنا نوفر لهم المطعم والمأوى والأمان، وربما ظن جدى هنا الغريب منهم..

- لا أظنه جاء يستجير بنا.

- حيرتنى!

- سأحدثك عن موضوعه بعد حين.

- موضوع؟ أجاء لنا بمواضيع. نحن لانتقصنا المواضيع فى أيام الكرب هذه. يا ريس.. انتظر.. لدينا راكب نزل عن طريق الخطأ.. خذه معك.

فى الوقت الذى كاد فيه جدى يقوم بترحيل الغريب، جاء «العمدة» مهرولاً ومعه وفد رفيع المستوى؛ «ناظر المدرسة» و«موظف البريد». وأسرع نحو الباخرة صائحاً:

- انتظر يا ريس.. معك زائر مهم لم ينزل بعد.. انزل يا مستر «كتبة».. أنت فى «كيشى» الآن.. إنزل يا كتبه بك. من خلفى جاء الرد فأصيبت بالحيرة:

- ها أننا!

نظروا إليه مندهشين. تساءل العمدة حائراً:

- أنت!

- نعم.. البروفيسور «كتبة تيما كوداى».

- أنت؟ كيف؟

- حسناً.. الباخرة أمامك.. ابحث عنه.

- حضرتك «كتبة بك»؟

- هناك جواز سفرى.

- لا أقصد.. إنما حدث بعض الخلط.

- هل ثمة مشاكل؟

- لا أبدا. أهلاً وسهلاً. لقد أبرق لى مدير الأمن أن أحسن استقبال عالم إنجليزى.. ولم أظن.. حسبتك.. لا يهم.. لا يهم. كلنا أولاد حوا، وآدم.. الأسمر والأسود والأحمر والأبيض. تفضل أهلاً وسهلاً.. أنت الآن فى ضيافتى. أن يكون هناك إنجليزى من أبونا فهذا مدعاة للفخر.. يا أهلاً.

أقلت الصيد، فالرجل فى ضيافة الحكومة.. فمن يكون؟ أهو ملاى متطوع فى منظمة الكبار تشبه منظمة الشباب وله دور محدد؟ أهو كما زعم أم له وجه آخر مستتر؟ أهو بصاص متنكر؟ لقد سمعت عن صور شتى يتنكر فيها المخبرون.. ومما تغشى الحكومة فتدس علينا بساسيها؟ فأين اليقين؟ كدت وجدى أن نتصرف لشأننا لولا تمسك الغريب بى كمرافق. ذهبنا لدار العمدة وتقاطر بعض الرجال لمشاهدة الإنجليزى الأسود. أكلنا. شربنا. ثرثرنا. انفردت بجدى وشحنته ضد الغريب ومزاعمه. مض بنه ما بين السبابة والخنصر كعادته حين يغضب أو يتوعد خصماً. وجدى قد يعفو ويتسامح ويتغاضى أى إهانة إلا فيما يخص الأمراء «ثورة الدين» ونجم الدين.. ويسبهما لآل البيت وينطق اسميهما بتقديس. سمعه يسب الغريب فى سره بلغتنا: «نقد».. زيون». هل سمعه غيرى فيسبب لنا حرجاً؟ ظل صامتاً، يتحرك بعصبية وتوتر.. يقعى، يتقرفص، يقوم.. لا يستقر على وضع وفى

* نقد: حمار.

حالة تحفز حتى واتته الفرصة، أعرف كيف سيتصرف.. سينتقم بطريقته، فهو يجيد استعمال الكلام دون اليد..

- يقول حفيدى أنك من جبال الدوبة؟

- نعم.. جذورى منها.

- وهل باعوك للإنجليز طفلاً أم خطفوك؟

- لا أفهم؟!

- كان عند أبى ثلاثة رقيق أصلهم من تلك الجبال.

- أبوك كان من «الجلابة»؟!

- أبى كان شيخ عرب.

- وكان له وجه قبيح.

- أبى؟!

- من كلامك.

- اللهم طولك يا روح.

كانت الحالة قد وصلت لدرجة الانفجار وعلى وشك أن يشتبكا. فذائف جدى الثقيلة أصابت الغريب فى مقتل، لو أن جدى ركله، ضربه، بصق عليه لكان أهون. ناظر المدرسة نكس رأسه خجلاً. موظف البريد نفخ فى غيظ والغريب ينظر للجميع فى ضيق والعمدة لوح بعصاه فى وجه جدى مرات ثم انفجر..

- مالك كبرت وخرفت يا «حاج محمد». لولا سنك ومقامك.. لكان لى معك شأن آخر..

- أكان لأبى وجه قبيح يا عمدة! أليس هو سيد هذه البلاد؟

أضاف موظف البريد مؤازراً العمدة:

- هذا لا يصح.. أبداً لا يصح.. ومتى كنا نتباهى باسترقاق الناس؟

قال الناظر مؤنباً:

- هذا عالم جليل يا حاج «محمد» وليس مثل الغلابة الذين التقطهم أبوك من التيه أو اقتنصهم من «الجلابة» عنوة.

وقال موظف البريد:

- وأظنهم كانوا زنوجاً، أنوفهم مفلطحة وشفاههم غليظة.

- أياً كانوا.. فنحن لا نسترق الناس.

- حصل خير وحمدوا الله.

وحمدوا.. استغفروا. عاد الصفاء. وبحركة مباغتة قام جدى وصافح الغريب وقبل رأسه. هكذا يحدث عندنا فى الغالب، يتشاجر الناس، يتسابون ثم يتصافحون ويقبلون رءوس بعضهم ولاتصل لدرجة التشابك بالأيدى أو رفع السلاح. وتدر أن بات أحد المتشاجرين متخاصماً. وأبداً لاتخرج الخصومات من حدود القرية وربما النجع. تساءل الناظر فى هذا الجو الودى:

- مستر «كتبة».. ألا تقدم لنا نفسك؟

- كما ترانى أمامك يا أستاذ.

- أقصد.. هذا التداخل بين الإنجليز وجبال النوبة وإجادتك العربية؟

- كالعادة.. كان أبى يعمل عند الحاكم الإنجليزى فتوسم الرجل فىّ بعض الذكاء فعلمنى القراءة والكتابة وأرسلنى للقاهرة فواصلت فيها

دراستى تحت إشرافهم ثم استكملت دراساتى العليا فى لندن وأعمل الآن فى جامعاتها وتجنست.. على فكرة يا جماعة.. نحن تسايب.

- كيف؟

- تدخلت مفسراً:

- زوجته مصرية.

قال العمدة:

- هذا يفسر اهتمام الحكومة بك. ثم استطرد:

- عن أى شئ تبحث عندنا يا مستر «كتبة».. فليس فى قريتنا معابد.

- لا شأن لحكومتكم برحلتى.

- نحن فى خدمتك.

- مهمتى بسيطة.

- وما هى؟

- فى الواقع.. لست من علماء الآثار.. لكنى أقوم ببحث مجاله (الأحياء المعمرين) فى هذه المنطقة.. فثمة خيط ضائع أحاول الإمساك به.. وقد التقيت فى لندن بعالم ألّف كتاباً عن (حضارة النوبة).. فوجهنى لمعمر يعيش عندكم ويظن ذاكرته فريدة.

- كل الرجال عندنا يعمرون.. الشمس والنيل وراحة البال.

- مطلبى شخص محدد.

- ومن يكون.

تدخلت:

- «كنود».

قال جدي ممتعضاً وساخراً:

- «كنود».. رماد فأله.

وتناثرت تعليقات أخرى:

- أبورتي*.
- «كنود» الأرمود.
- وبماذا يفيدك؟
- أسافرت كل هذه المسافة من أجل «كنود»؟
- عجائب والله.. صار لسفار الشأن قيمة.
- كل هؤلاء الأفاضل في بلاد الدوبة ولم يقع اختيارك سوى على «كنود»؟ حسناً.. خذه معك وأرحنا منه.

قال الغريب:

- قد أفعل لو تطلب الأمر.

وقال العمدة:

- هيا بنا لنرى حكايته.

---

* أبورتي: الرماد.

٨

هذه

دار عائلة «كنود» فوق جبل «الطياب»، كديبة غبراء ومعزولة عن تجوع القرية. دار منفرة لا تسر النظر، جدرانها متساقطة وواجهتها غير مطلية ولا تزينها أطباق الصيني. وقباب الغرف الداخلية أذابتها سيول (عام الطوفان). غرفة واحدة تم تسقيفها بجذوع النخيل وألواح الخشب. باقي الغرف مفتوحة للسماء. لا شيء يدل على وجود حياة وأحياء. لا أطفال يتعاركون ويتصايحون، لا امرأة تنوح أو تغني. لا كلب ينبح. لا معيز تمأمىء. لا دجاج يكأكئ. وحين تجوع الذئاب والثعالب وتناهم القرية لا تدنو من هذا البيت أبداً. والباب الخارجي يظل مواربا، الناس يدفعونه ويدخلون. يضعون له الطعام وينصرفون، يفعلون هذا كل يوم، بالتناوب، كل عائلة تتولى إطعامه يوماً.. عدا عائلتنا.

وعائلة «كنود» مغلقة بالغموض وليس لها نسب بعائلات القرية من «كنوز» و«عرب»، لا تناسبوا ولاتداخلوا. وهناك حكايات تروى عن جدهم الأول. قيل إنه نزح بعائلته من «كردفان» أو «دنقلا» بعد تنازعه مع آخرين على أرض أو زعامة أو كرامة وقيل إنه كان من المحاربين الأشداء. وقيل رأس قبيلة أيضاً وفى نزوحه نزل بـ «أدندان» و«أبى سعيل» وتعارك أيضاً مع الكشاف وبقايا المماليك فواصل النزوح وكان يدوى الاتجاه شمالاً حتى مصر ليشكو للسلطان الظلم الذى لحق بقومه، وفى فترة استراحته عندنا هاجم بعض الأغراب قريتنا يريدون اقتلاع الزرع وسرقة الماشية، وأظنهم كانوا من (البشارية) الجياع فتصدى لهم قوم «كنود» وكان معهم سيوف وحراب.. وهى أسلحة لا نعرفها وهزموهم وطردوهم. فأكرمهم قومنا ورحبوا بهم فاستقروا عندنا وبنوا دارهم فوق الجبل وكانت تبدو كالقلعة يصعب الوصول إليها بيسر وكأنهم كانوا يتوقعون مطاردين. كانوا بنائين ونجارين وصيادين مهرة وأدلاء. تقوقعوا فى جبلهم ولم يمتلكوا أرضاً ولا تناسبوا فأنقرضوا بالموت والهجرة، بعضهم إلى مصر وآخرون إلى السودان وبرز من أبنائهم فارس فى حرب «المهدية». وكان آخر من مات «كندارى» زوجة «كنود». ولم يبق من هذه العائلة الغريبة غير «كنود». وتلك كلها أقوال مرسلة وأساطير وقد قيل يخاوون الجن وقيل يسحرون. وقيل سبب حبهم لقريتنا أن الكشاف والمماليك لم يطأوها وظلت خالصة للكنوز.

حملنى جدى نصائحه ونحن فى طريقنا إليه أنا والعمدة والغريب:

- لا تدعه يلمس خصلة من شعرك أو يلتقط شيئاً منك. لا تأكل ولا تشرب عنده. لا تدعه يستدرجك فى الحديث. كن حذراً وحوقل واقرأ (الصمدية) كلما استشعرت منه خطراً.

لمّا دنونا من داره شهق الغريب بإعجاب:

- هذه قلعة وليست مثل دوركم.

التقط لها صوراً ودار حولها مرات ثم دخلنا. كانت غرفة «كنود» عارية تماماً ليس بها سوى «العنجريب»* وصندوق وعلى الجدران بقايا مقتنيات العروس النوبية وصورة لرجل أبيض فى برواز وأترية وخيوط عناكب وضوء شحيح. والرجل شعر بنا فاعتدل بصعوبة ورحب بنا بإيماز وصمت. «الغريب» جلس بجواره، يداعبه ويتودد إليه. والعمدة اتخذ الصندوق مجلساً. وأنا، وقفت بجوار الباب. الرائحة العطنة لاتطاق وكأننا داخل مقبرة حتى كلبى لم يطق فظل يتجول فى الحوش. وكان الصمت وكان الترقب. فتح «الغريب» حقيبته، أخرج منها غليوناً وقداحة وعدة أكياس من التبغ وقدمها لـ «كنود»، الذى فرح بالهدية كالأطفال وأخذ يتشمم الدخان بتلذذ قبل أن يحشو غليونه، سحب عدة أنفاس متلاحقة، سعل، بصق وصار غير من كان؛ عيناه الميتتان صار لهما بريق. ضحك. تبادل القفشات. اعتدل. دبت فى روحه الحياة قال وهو يقبل كيس التبغ بوله ومشيراً للعمدة بقلق:

- من فضلك يا عمدة.. اجلس بعيداً عن صندوق «كندارى».

- لا تخش.. إننى أجلس على الحافة.

* العنجريب: السرير.

وعاد للغليون يحشوه في تأنٍ وصبر. قال معلقاً:

- لو وجدت هذا الشيء.. ما ركبني الهم والكبر.

انحنى وقبل «الغريب» بحميمية وامتنان وتساءل:

- من أنت؟

- صديق.

- وكيف عرفت أنني أحب هذه الأشياء.

- نصحني أحدهم.

- ومن يكون؟ ربما أحد أحفادي في مكان ما.

- مستر «نيلسون».. هو الذي دلني عليك وعلى ما تحب كالدخان وغيره.

- «نيلسون».. «نيلسون». آه.. ذلك الرحالة العظيم.. ستجد صورته عندك أعلى الجدار. كان عاشقاً للنوبة وأهلها. تعلم لغاتنا وصار كأنه منا وكدنا نزوجه نوبية لولا ديانته. عملت معه دليلاً وطاهياً في قلعة «إيريم» و«كويان» و«دنقلة». وكان يتكئ أحياناً ويحفر بالأيام بحثاً عن أشياء سخيفة يسميها أدلة وقرائن. وكان يطير فرحاً حين يعثر على قلادة أو برام أو جمجمة وقضى أياماً يتعبد في «أبي سمبل» أظنه كان يعاني من بعض الهوس. وحين زرنا معاً جبال النوبة قال جملة لم أفهمها حتى الآن: ها هنا الحلقة المفقودة. ماذا كان يعني؟

قال مستر «كتبة» باسماً:

- لا عليك.. واصل.

- يا إلهي.. أولئك القوم الحراة المساكين، الغريب أن بعض مفردات لغاتنا موجودة عندهم ورقصة الكف الكنزية أيضاً. كان هذا منذ زمن بعيد.. بعيد جداً. تراسلنا فترة ثم انقطعت بيننا السبل فخلته مات. فكل الناس يموتون سواي. لا أدري لماذا؟.

ثم صمت ونظر إلى مستر «كتبة» وتمتم بكلمات خافتة مترددة..

- ارفع صوتك قليلاً.. ماذا قلت؟

- مستر «نيلسون».. ألم يقل عن أشياء أخرى أحبها؟

- قال.

- وهل عملت بالنصيحة؟

- بالتأكيد.

- حرام عليك.. هيا يا رجل.. ماذا تنتظر.

نظر «الغريب» لي وللعمدة متحرجاً.. فوكزه «كنود» متلهفاً:

- هات يا رجل ودعك من هؤلاء الدراويش.

أخرج «الغريب» زجاجة من حقيبته الثمينة، صب منها سائلاً في غطاء الزجاجة وقدمه لـ «كنود»..

- نستأذنك يا عمدة.

- لكم دينكم ولي دين.

«كنود» شرب السائل بسرعة وطلب المزيد: هات يا رجل.. هات يارجل. بعد عدة جرعات هب «كنود» من فراشه، رفس الغطاء ووقف

كالعفريت كأنه ميت بعث، مارد خرج من قمقم. ثم غنى بصوت مبحوح:

«كنداري يا حبيبة
يا دنيا يا شقوقة
يا دنيا يا خدونة
اهدتي ليه كنداري».

قال العمدة مواسياً:

- وحد الله يا شيخ.. أطلب الرحمة لـ «كنداري» ولأولادك.

- كلهم ماتوا أو هجوا وتركوني وحيداً.

استجدى «الغريب» وحصل على عدة جرعات أخرى ثم انخرط في بكاء حاد عنيف واضعاً رأسه بين كفيه. نهره العمدة:

- لاتكن طفلاً.

- الوحدة صعبة ياعمدة.. ليس معي غير صندوق «كنداري».

- كلنا حولك.

- يضعون لي الطعام وينصرفون وكأنني كلب.

- احمد الله أنك في بلادنا نجد من يطعمك، في بلاد أخرى، الناس يموتون جوعاً على الأرصفة.

- وهل الطعام وحده يكفي؟ أين الناس والونسة؟

- هنا موضوع آخر..

- أنت مثلاً.. متى زرتني؟

- مشاغلي كثيرة.

- ألست من بين مشاغلك؟

- عندك حق..

وكأنه اكتشف وجودي، حدق في وجهي متسائلاً:

- أنت ابن من؟

عرّفته بنفسي وبعائلتي متجنباً نظراته كما تُصنعت رغم عدم إيماني بالحسد وبخرافات قريتي..

- عموماً هذه فاتحة خير، فأنت أول زواري من عائلتكم. أتعرف سبب قطيعتهم لي؟

- لا أدري..

وكأن زيارتي قد مست جرحاً قديماً، اتكأ بالحائط وأشعل غليونه وتناول كأساً ثم عاد للماضي البعيد يستدعيه. قال: «منذ خمسين عاماً أو يزيد قاطعوني وكادوا يطردونني من القرية لأنهم تصوروني السبب في مقتل جدكم الكبير والد جدك «حسن أحمد»، وكبير عائلتكم يا ابني كان أهم رجال هذه القرى، أغناهم وأكثرهم نفوذاً وجبروتاً. «حسن أحمد» هذا يا ولدي كان طاغية بلا قلب. بنى قصراً واقتنى العبيد.. وكلهم تقريباً كانوا من بلد هذا الضيف. مات بعضهم من التعذيب وباع البعض ولم يبق لديه سوى «مرجان».. كان هذا الولد قوياً صبوراً تحمل كل أنواع التعذيب من القيام بدور أبقار الساقية والكي بالنار وتسمير أذنه

بالأشجار. «حسن أحمد» كان مريضاً ويحب تعذيب البشر مثل أى جبار من الأتراك وبعض أمراء العرب والمماليك. المسكين كان يهرب منه ويلجأ لبيتى مستجيراً فأعيده وأوصيه عليه: يا حسن أحمد، اتق الله. ياحسن أحمد خاف الله ويوم الحساب. ذات مساء وجدنا مرجان يطرق بابنا وهو على شفا الموت. تلقيناه أنا وكندارى رحمها الله. أطعمناه وعالجناه .. بالإشاعة، كان مكويا فى كل جسده .. إليديه، خصيتيه، لسانه. ولم يكن بوسعنا حمايته قالت كندارى: ساعده على الهرب. سرّحت له حمارى الوحيد وزودته بالطعام وقربة الماء وهراوة. لكن كندارى تكشت فى صندوقها وأخرجت منه سيفا لم أر مثله من قبل وقالت له مشجعة: هاك .. سيف جدنا حاكم النوبة وامض إلى أهلك وإن أكلتك الذئاب أفضل من أنياب هذا الغول وإن لحق بك حسن أحمد، اقض عليه ولاتخشه هذا سيف الفرسان وكان ملكا لفارس عربى .. انتزعه منه جدنا وقهره .. واسمع جيداً. إن عاد «حسن أحمد» بهذا السيف وبك .. سوف أفتلك. ولمّا علم الظالم بفرار «مرجان»، هددنى بالقتل وطارده ثم اختفى، بعد ثلاثة أيام قام فريق من الرجال باقتفاء أثرجدك وحماره. وجدوه عند وادى «العلاقى» ممزقاً إلى ألف قطعة ولا أثر لـ «مرجان».

فى الواقع، لم أكن معادياً لجدكم الكبير رغم طغيانه إنما ضد مبدأ الاسترقاق وهذا من الأشياء الجميلة التى تعلمتها من مستر «ويلسون». وكثيراً ما تعرضت للجلّادية ومرة أشفقت على رقيق فاشتريته وأطلقته. بهذا يا ولدى أمرنا الإسلام. وهكذا فعل نبى الله محمد. تلك حكايتى مع عائلتك».

ومض فى ذهنى خاطر سريع مشاكس. فأخذت أتنقل بنظراتى بين «كتبة» و«كنود»؛ اكتشفت أن تطابقاً يجمع بينهما، فـ «كنود» لا يشبه جدى ولا العمدة ولا أى من سكان قريتنا، إنما هو أقرب لسليل جبال النوبة. حدث تحور وتطور عند «كنود»، لكن أهم ما يجمعها هذه العيون العسلية البراقة الجميلة و«الكاف» المشترك بين الإسمين فجأة وجدتنى أسأل:

- عم «كنود».. مستر «كتبة» هذا.. أهو قريبك؟

قال العمدة مستغرباً:

- يا لك من إبليس.. ما الذى جعلك تتصور هذا!

علق الغريب فرحاً:

- بل هو شاب لماح وذكى.

- رد العمدة:

- وما الذى يجمع الشامى بالمغربى؟

مستر «كتبة»، يلتقط كل كلمة عبر جهاز تسجيل ويشجع «كنود» على البوح بالمزيد من الشراب و«كنود» كأنه يهلوس.. يتحدث عن أجداده الذين لم يخالطوا الزنوج ولاالعرب والأتراك والمماليك وربما حتى الفراعنة، وجدود «كندارى» حكموا قلعة الجبل وصندوقها الثمين هنا ورثته عن السلف وحافظت عليه حتى طلوع الروح وأوصانى به، فأوفيت بعهدها.

كان مستر «كتبة» يتأمل الصندوق بانبهار شديد من كافة الزوايا..

- ماذا بداخله؟

- أشياء «كنداري» وأهلها.

- مثل ماذا؟

- الله أعلم.

- ألم تفتحه؟

- هنا سرها.

- هل تفتحه لنا؟

- هنا عندنا عيب والأغراب لا يتجاوزون السبيل.

- ملابسها مثلاً؟

- لا أدري.

- شوقتنا..

- هي نفسها كانت تتجنب فتحه أمامي.

الصندوق كبير وليس كصناديقنا. في حياتي لم أشاهد صندوقاً بهذا الجمال ودقة الصنع. كأنه صندوق ملك. ورغم دخول القوم بالطعام كل يوم في هذه الغرفة، فإن أحداً لم يتحدث عنه أو لفت أنظارهم.. فهو مجرد صندوق وحسب. لكن «الغريب» اكتشفه، ألقى بجواره واستخدم بطارية وعدسة مكبرة لقراءة النقوش والرسومات، تابعته حين سلط الضوء على صورة امرأة حسناء تحمل طفلاً أجمل منها. مندهشاً هتف «الغريب»: يا الله.. يا الله.

وبدوري قلدته: صلاة النبي. مثلما تقول أمي عندما يبهرها شيء رأيت عشرات الصور من شتى الأماكن والمجلات، لكن هذه ليست مجرد صورة، إنما حقيقة ينقصها الروح لتنطق وتبريش بعيونها وتتحدث معنا. لكن بأي لغة سنكلمنا هذه البيضاء الساحرة؟

الألوان زاهية والعيون ساحرة. من تكونين يا ربي؟ بالتأكيد ليست «كنداري». ومع ذلك سألت:

- أهذه صورة «كنداري» يا عم «كدود»؟

ضحكوا من سذاجتي وعبطي وقال العمدة ساخراً:

- «كنداري» كانت شبه الغولة.

رد «كدود» عليه بغضب:

- وأمك البومة.

العمدة عاود السؤال:

- من هذه يا «كدود»؟

- ملاك ياعمدة.

- أهي زوجة الخواجة «نيلسون»؟

تعلقت أبصارنا بصورة الرحالة المعلقة في عملية مقارنة ساذجة، قلت مستعرضاً معلوماتي:

- رأيت مثلها في إحدى كنائس «أسوان».

مستر «كتبة» حسم المسألة:

- إنها «العذراء» يا جماعة.

صاح العمدة بتقدير ودهشة:

- «مريم» البتول».. عليها السلام.

ثم أضاف متسائلاً بعد برهة قصيرة:

- لكن يا «كنود».. ما الأمر؟ أكنت تصلى معنا الجمعة وأنت نصرانى؟

العمدة طرح سؤالاً ملغماً فى بيئة متسامحة؛ فقومنا لا تطرح بينهم مثل هذه الأسئلة، المسافات بين العقائد غير محسوسة عندنا، لايحفرون وراء المسائل بدليل أن العمدة المتدين الوقور يجلس الآن بين إثنين يتعاطيان المكر أمامه. إنهم يعمدّون أطفالهم فى النهر كعادة متوارثة ولم يسألوا أنفسهم يوماً؛ أهى عادة فرعونية أم نوبية أم قبطية و«صنبة» الباب على هيئة صليب وأمى تقول مستجيرة: أنا فى عرض «مريم». مع أنها لا تعرف من تكون «مريم» هذه؟ وتظنها من آل البيت مثل السيدة «زينب». وحتى لو عرفت، أن تتغير مشاعرها فهى أم نبى مثلما الست «زينب» بنت نبى. ومع ذلك، فالعمدة ما زال فى منطقة الألغام:

- مستر «كتبة».. القرية المجاورة لنا اسمها «ماريا»، زرها ربما تجد فيها ضالتك.

- ياعمدة.. لست قساً ولا مبشراً إنما أبحث عن موضوع ليس له علاقة بالأديان.

- وما هو؟

- «كنود» يا عمدة؟

- ماله؟

- أظنه من سلالة النوب.

- النوب! من هم النوب؟

- الأصل الذى أنتج الفروع.

لا تدخل بدا فى متاهة يا مستر؛ لا يوجد فى «كيشى» غيرنا والعرب.

- يوجد يا عمدة عنصر رئيسى وثالث يعادله «كنود».

- لا أفهم ما تعنى و«كنود» هذا رغم غرابة اسمه.

صحيح. ما هذا؟ «كنود».. «شكندة».. «جدكاب». ثم (كشّى. كا. كلْ. كلو دول. كـــا جى)*. هذا الكاف المشترك بين الأسماء والأشياء. تساءلت محاولاً تطبيق القياس على أشجار عائلتنا:

- لماذا لا تدع «كنود» يذكر لنا بعض الأسماء؟

تدخل الغريب مقاطعاً:

- لا تجهدوه.. دعونا فى الأهم.. يا عم «كنود».. افتح لنا هذا الصندوق إكراماً لى..

- لا أستطيع..

* كا: بيت، كلْ: خبز. كلو دول: الساقية الكبيرة، كاجى: معى.

- حصاً.. بعه لى.
- صندوق «كنتارى».
- «كنتارى» مائتا.
- عاهدتها.
- أدفع مائة جنيه.
- فى صندوق من الخشب؟
- مائتان.
- أأنت جاد.
- خمسمائة.
- هل سكرت يا مستر «كتبة»؟
- كم تريد.. قل؟
- قلت لا إله إلاّ الله.
- ألف جنيه ولن أزيد.
- ما الحكاية؟

دهشة وذهول. عبث. جنون. مستر «كتبة» سكر أو بالصندوق سر لا يطعم سواء وجاء خصيصاً من أجله وكل هذا الهراء عن الثوب وبحثه عن الخيط المفقود مجرد تغطية وأن بين الأجهزة التى يحملها من بطاريات وكاميرات وجهاز التسجيل شىء يكشف أعماق الأماكن المغلقة. بالتأكيد عرف الآن السر وما يحتويه الصندوق من كنوز الملك «سليمان»! ألف جنيه فى قريتنا ثروة هائلة. أكبر وارث للأرض حصل

على نصفه كتعويض بعد بناء (خزان أسوان) ويأتى هذا المعتوه ويدفع مبلغه فى صندوق من الخشب. هذا جنون.. منتهى الجنون. أهو جاد فى هذا العرض..

- ألف جنيه يا «كنود».. ماذا قلت؟
- والله العظيم ولا بعشرة جنيهات.

العمدة قطس من الضحك وأطلق شاركته و«الغريب» رفع حاجبيه دهشة..

- فضحتنا يا «كنود» أما م الأجانب؛ الرجل يقول ألف وأنت تقول عشرة. ألا تفرق بين الأرقام يا رجل.. ألف يا حمار، يخرب بيت أهلك.

- لن أبيع والسلام.

العمدة:

- بع يا «كنود».
- لن ترغمنى يا عمدة.

العمدة يقترب من «كنود»، يهزه، يقول فى غيظ:

- يا مغفل.. ألف جنيه يسترك باقى عمرك وتعيش محترماً بدلاً من حياة الضنك والتسول. الناس هنا يطعمونك ويكسونك لوجه الله. أما فى البلد الجديد فمن يدرى؟ فرصة واتتك فلا تهددها؛ وأنت على أبواب القبر.. بم يفيدك؟!

- رائحة «كنداري» وجدودي، دقق يا عمدة في هذه الصورة التي تزين الواجهة، حين يضيق بي الحال وتسعفني الوحدة أتأملها فأرتاح، تغمرني السكينة.. كل ليلة أغمض عيني عليها فلا تهاجمني الكوابيس. أتونس معها، أحدثها وتحدثني تتسامر معي وطفلها دائماً في حضني، يلاعبني، يملأ الغرفة شغباً وشقاوة. تصدق يا عمدة.. مرة، أقسم ذات ليلة، داهم ذئب غرفتي هذه وكاد يفترسني، استجمعت قوتي وقفزت فوق الصندوق. وكلما اقترب مني، تسحبه قوة للوراء، وأخذ يحملق في الصورة ثم تراجع في هدوء.. فكيف أبيع صندوقاً به صورة كهذه؟

- أنت نهلوس يا «كتوه».. سآتيك بالمصحف الشريف يقيك ويحفظك.

- لن أبيع. ولكن تقديراً مني لهذا العشيف ومشواره الطويل وهداياه سأوصي به له بعد مماتي.. هنا عهد. هات يا عمدة ورقة وقلماً وأكتب وصيتي. ما رأيك يا مستر «كتبة»؟ وأنت يا عمدة.. هل تنفذ الوصية؟

- شهادتي وهذا الشاب تكفيان. لا حاجة بنا لأوراق وأقلام. قم بنا يا مستر «كتبة»، تعال أريك صندوقي، لو أعجبك، خذه بلا مقابل أو ادفع ما تجود به. فهذا رجل مجنون.. داهية تشيله.

٩٠

هذا

يوم الصناديق، مثلما نقول يوم مولد النبي ويوم عاشوراء ويوم زواج ابن فلان أو موت فلان، مناسبات تؤرخ بها أيام «كشي». وهذا أغرب يوم في حياتنا وربما في الدنيا كلها. صناديق. أين تخطو لا تجد سواها. أمام الأبواب. في الأحواش. في الشوارع. كل الناس باتوا يحلمون بالألف جنيه أو حتى بمائة. الناس جدوا. أصيبوا بهوس.

ومستر «كتبة» بدأ بصندوق العمدة، ألقى عليه نظرة سريعة عابرة وانصرف لمشاهدة باقي الصناديق. قطع القرية طولاً وعرضاً دون جدوى، كلها صناديق حديثة عادية لا تساوي شيئاً. يئس وقرر الرحيل لزيارة باقي القرى على امتداد النهر حتى «حلفا» بحثاً عن سلالة «النوبة» وصناديقهم. لكنه سيترك خلفه قرية غير ما كانت وبشر غير ما كانوا. لقد أحدث بزيارته القصيرة شروخاً وتصدعات. والناس

يخمنون، يؤلون، يفسرون، يتراهنون. يحاولون الوصول لسر «كنود» وصندوقه العجيب..

- ماذا تظنون بداخله؟
- كنوز الملك سليمان..
العلك سليمان لم يأت بلادنا أبداً.
- إذن.. تاج «رمسيس» الذهبي.
- بل سيف «شرف الدين» المرصع بالماس.
- ذهب «كندارى» وجداتها.
- سبائك من ذهب وادى «العلاقي».
- يقولون جدهم الأول كان حاكماً فى السودان وهرب إلينا بثروة شعبه وهى مخبأة فى الصندوق.
- و«الغريب» جاء سعياً وراء هذه الثروة.
- يقولون أوصى به للغريب.
- نحن أحق.
- أطعمناه وكسوناه والصندوق حق لنا.
- والوصية؟
- ليست كلاماً منزلاً من السماء.
- مجرد كلام فض مجالس.
- نحن أصحاب كلمة يا قوم.
- ونحن أصحاب الحق يا فصيح.
- القول للعمدة.
- لن يتحالف ضدنا مع «الغريب».

- صدقونى يا ناس «كيشى».. لن تجدوا بداخله سوى جثة «كندارى».

هوس أصاب «كيشى» الآمنة. كابوس يوم الرحيل تراجع درجات واحتل مكانه الصندوق. حتى الونسة فى فراشى الزوجية. أطفال المدارس. العواجيز. و«كنود» نفسه، من يكون؟ من أين جاء جدهم الأول؟ أهو بشر أم جنى؟ «كنود» الذى ولد هنا أباً عن جد صار لغزاً. أهو مسلم أم نصرانى؟ «كنود» الذى يصلى ويصوم ويلطق الشهادتين بانوا يشكون فى عقيدته. لمجرد وجود صورة العذراء على واجهة صندوق ورثه. تخمينات. تصورات. خيالات جامحة. فى تلك الساعات العصيبة كنت ملازماً للغريب فى تنقلاته، سألته بإلحاح عن تصوره لمحتويات الصندوق الذى حير الناس؟

رد بلا مبالاة:

- لا تطيبنى سوى الواجهة والنقوش والكتابات..
- وهل تدفع كل هذا المال فى صندوق فارغ! إننى متدهش؟
- وقد أهديه فى النهاية لمتحف القاهرة.

ذهبنا لـ «كنود» لكى يودعه «الغريب» قبل استئناف رحلته جنوباً بمركب شراعى استأجره. تعانقا. بكيا. تصافحا بقوة وحرارة..

- كم تظن عمرك يا عم «كنود».
- لا أدرى.. لقد أكلت أخوتى وأولادى وأحفادى.
- ألديك ما تقوله لى.

- الصندوق لك بعد رحيلي.

- سأعود. حتماً سأعود.

وقفا بجوار بعضهما. التقطت لهما صورة تذكارية. ونحن في طريقنا للمركب الشراعي قال لي بإعجاب: «كنود» رجل فريد، إنه كنز. كنز حقيقي واكتشاف مذهل وذاكرة تاريخية نادرة. لو كانت الحكومة المصرية تسمح لي. لأخذته معي لمعاهد الأبحاث في لندن. إنه في الواقع أهم من الصندوق والمعابد. ونحن نودعه عند الشاطيء.. داهمني شعور غريب.. بأنني لن ألتقي به مرة أخرى.

• ١٠ •

هذا

يوم الرحيل إلى الشمال، يوم الهول، يوم القيامة، يوم ترك «كيشي» إلى يوم البعث. أصعب يوم. أطول يوم. هذا يومي الحرج. يوم المواجهة مع جدي والمسنين. أعاون العمدة دون أن يشعر بمهمتي. أراجع معه الكشوف والأسماء وأبث الوعي بتعومة وذكاء. قال العمدة محذراً:

- راقب جدك.

- هذا عندي.

حين وصلت بواخر الترحيل وأطلقت صفاراتها. صوتت النساء وبكى الرجال. أول بكاء جماعي للرجال. هذا لم يحدث من قبل ولا في المآتم. توقفت القلوب عن الخفقان وخرست الألسن عجز الناس عن ابتلاع ريقهم. سمعت أنهم زمان، كانوا ينزحون لأقصى الجنوب تحت

ضغط حملات المعاليك، لكنهم حين تهدأ الأمور وتنسحب الحملة يعودون. الآن لا عودة. هجرة نهائية. سيظل السد حاجزاً بين مكانين. والعمدة مع خفرائه وميلشياته يتعجل المتلكئين. والكلاب تنبح بعصبية، تتمسح بأصحابها تزحم الشاطىء. وهذا النباح المتواصل أصاب الصغار بالذعر والبكاء والكبار بالإرتباك. والأوامر صارمة: ممنوع سفر الكلاب. حتى كلاب «ماريا» عبرت الجبل وخور «الطياب» وجاءت تتقاتل مع كلابنا. والعمدة يحذر: الذى يتخلف، ستأكله هذه الكلاب قبل الذئاب. الأرملة «فاطمة سليمان» ثارت عليه: حرام عليكم يا عمدة.. لماذا لم تبلغ حكومتك مساعدتنا بشيالين؟ وماذا أفعل بمفردى؟ لا ولد ولا بنت،تركت سريرى وصندوقى وحماماتى طارت من الأبراج.. منكم لله.. ربنا قادرعليكم. وفى يوم الرحيل، كل مشغول بنفسه، لا تمتد يد العون إلاّ للمسنين والمرضى. والعمدة لا يبالى بمن تركن صناديقهن وأسرتهن.. كل همه رءوس البشر حسب كشوف الإحصاء. أنا وجدى فوق حماره نقلنا كل أمتعتنا عدا أزيار السبيل والرحاية والحمام الطائر والصندوق لثقله، رغم أنى مصمم على نقله ولو بالسحب على الأرض. أختى كانت فرحة للغاية، تغنى، اغتاظ جدى. شتمها:

- اخرسى يا بنت الديوث.

- تسب أبى.. سأبلغه.

- نفو عليك وعلى أبيك.

- الملافظ سعد يا جدى.

- سعد لمّا يقطع لسانك.

تمادت أختى لتغيظه وغنت ألحان الشمال: «على بلد المحبوب ودينى».

- بلد المحبوب هنا يا فاجرة. جيل مسخوط عليكم لعنة الله.

ردت أختى بعناد:

- أنت يا جدى قضيت عمرك هنا وحبستنا معك فى هذه البلاد الخربانة، الدنيا يا جدى خلف الخزان غير بلادنا. ماذا هنا غير الجبال والعقارب والذئاب والجوع. الذين عاشوا هناك يحكون لنا عن المدعة والراحة والخير الوفير. عمرك يا جدى أكلت العنب والتفاح والموز.. فكل فاكهتنا بلح على ألوان وأشكال؟ القطارات يا جدى والكهرباء. أسمعت الراديو فى حياتك؟ أشربت ماءاً نقياً كماء زمزم؟ والأسرة الخشبية ومراتب القطن. ويا سلام يا جدى على المدمس والطعمية. أنت يا جدى تعشق الخرابات مثل... .....، القوم يريدون إسعادنا وأنت فرحان بمقابر الجدود وبأرض لا تنبت سوى القحط والعقارب وبالنيل وتماسيحه. إصح يا جدى. كفاك نوماً فى الماضى: «يا وابور الساعة اتناشر يا مجبل عالصعيد..».

لوح جدى بهراوته. ابتعدت غاضبة، أفرغت شحنتها فى جرة الماء، ركلتها بقوة فتدحرت وتحطمت:

- اذهبى فى داهية.. طلّعت روحى.

جرة الماء هذه، من أدوات تعذيب أختى، فهى من ضحايا المكان،

تتحمل عبء تفاصيله، فأمي دائماً تشكو متاعب الظهر فتنوب عنها في كل الأعمال الثقيلة. المسكينة طوال النهار تعمل، من الشروق إلى المغيب. لا تكف عن الحركة وكأنها جارية. تبكر لملء أزيار البيت والسبيل. أختي لاتعاني كثيراً في شهور الشتاء حيث يكون النهر جنب القرية. أما في الصيف، حين ينسحب النهر بعد سحب مخزونه، فالويل لنا من لسانها فمهمتها تصبح صعبة وقاتلة، تأتي من المشوار الواحد تتضح عرقاً ودموعاً من الحرارة الشديدة والنهر البعيد نسب النهر والأرض والسماء وتطلب من ربنا أن يأخذها لترتاح وتقول كلاماً يغضب جدي: نحن يا ربي نصلي ونصوم ونحتفل بمولد نبيك. فلماذا تعذبنا نحن البنات؟ ألست قادراً على تقييت النهر جنب البيوت؟ ألست قادراً على تفجير آبار زمزم فوق الجبال؟ ألست قادراً على تلطيف الجو؟ أرني قوتك إن كنت قادراً؟.

يفزع جدي من تجديفها ويقول لها مستغفراً ومصححاً معلوماتها الخاطئة:

- ربنا يا بنتي ليس له دخل في صعود النهر وهبوطه، أهل الشمال أقاموا خزاناً هوالذي يتحكم في النهر. ولابد من الليل والنهار والصيف والشتاء. وبئر زمزم تفجر في أرض الأنبياء لا في أرض كافرة مثلك. سيأتي علينا يوم سيسخطنا فيه ربنا قروداً بسبب لسانك. قومي صلي جانك البلاء الأحمر.

أختي طوال فترة الصيف، تراقب استخدامات الماء بدقة وصرامة وتتشاجر مع جدي الذي يتوضأ خمس مرات في اليوم وتقول له كلاماً

ثقيلاً بلا تحرج:

ألا تحافظ على وضوئك بين صلاتين.. أنت يا جدي تتحجج بالصلاة لكي تتبرد بالماء، الذي تريقه دمي وعرقي.

وكنا نخشاها.. بالكاد نمسح وجوهنا في الصباح، نزيل عن عيوننا «العماص». وكان جدي يهتم بأزيار السبيل لأسباب دينية ويعاتبها حين يجدها فارغة:

- السبيل يا «زينب»..

- لا أقدر يا جدي.. الحر لا يطاق.

كان هذا اليوم قد تحول نهاره إلى لهب؛ الكلاب ترقد لاهثة تحت الأزيار، المواشي انسحبت للزرائب الليلية الداخلية، العصافير كنّت فوق الأشجار، والرجال لاذوا بالنهر. وكل الكائنات تئن.. تستغيث بالرب. فهذا يوم من أيام الجحيم الدنيوي. وأختي خرجت بالجرة وعادت مسرعة وهي تصرخ:

- نار.. نار.. الدنيا ستحترق.

ولما قالت لجدي محتجة:

- الرحمة يا جدي.. الرحمة مطلوبة.

- هذا ثواب يا بنتي.. وبالذات لو جاهدت في يوم كهذا.. ستدخلين الجنة بسبب هذه الأزيار.

- ادخل الجنة بمفردك ودعني لحالي.. الله يخليك.

جدي يستغفر الله وينادي على أمي غاضباً:

- يا آشة همّد.. آشة هُوىْ.. بدلك كفرت.

- اسمعى كلام جدك يا «زينب».

- فى مانا يا أمى؟

- هو القائم على أمرنا!

- يعلى يقتلنى..

- لا تغضبيه والسلام.

- اسمع كلامه لو فرض علىّ عريساً لا أحبه، فى طلب يخصه، لو منعنى من الخروج، فى أمور الدين والأخلاق. لكنى لن أموت بسبب أزيار الجنة هذه. أولاد الحرام يغتسلون ويتوضئون من أزيار السبيل.

- الطاعة واجبة يا بنتى.

- أمى.

- من أجل خاطرى.

- ذنبى فى رقابكم.. سأملؤها وعلى جدى مراقبتها. وتربة النبى لو رأيت أحداً يغتسل، سأعفر وجهه بالتراب.

ومرة شاهدت عابر سبيل أرهقته حرارة الطقس فسكب فوق رأسه طاسة ماء، طاردته وسبته: يا بن الحرام.. تغتسل بماء أكُدّ فى جلبه رح.. داهية تأخذك.

ولمّا سمع جدى بالواقعة، ثار ثورة عنيفة، ضربها بقسوة وحبسها وجلد كل بنات الدجع، ليدخلن الجنة بدلاً منها.

هموم أختى ومتاعبها لا تقف عند مشاعب ماء الصيف، خبز الصيف أيضاً له حكاية.. فالذرة (العويجة) تخرج من الزحاية خشنة فيتم تنعيمها على صخرة «الجمجي»*. عملية مرهقة للغاية، تستغرق وقتاً ثم تخمره، وتخبزه. وتبدأ المأساة فى عملية الخبيز، التى تتم فوق ساجة من الصلب على وقود الحطب، فيتحول الكانون إلى أتون وأختى تنفخ فى الحطب وتبكى، تبتل ملابسها من العرق وتتوجه للسماء شاكية: يا ربى.. لماذا تعذبنا فى الأرض دون كل البشر. وأحياناً تتمرد: لن أخبز وسآكل العجين نيئاً.. الجائع منكم يتفضل، الكانون أمامكم.

أشفق عليها فأدخل الجحيم لمعاونتها، يرانى جدى.. فينهرنى:

- لا تكن بدونة، فللرجال مهام أخرى.

فترد عليه أختى متهكمة:

- طبعاً.. يلعبون السيجة ويستحمون فى النيل.

لهذه الأسباب وغيرها، بنت أختى سعيدة بالرحيل وكنت مثلها لسبب مختلف، فبين مدارس «أسوان» ومنطقة الدهجير، مسافة ساعة بالقطار فأستطيع قضاء يومىّ الخميس والجمعة بين أسرتى والأهم من هذا أن وسائل القراءة متوفرة فى «أسوان». وأمى تتأرجح بين حب المكان وخوفها من المستقبل حين تتزوج أختى.. فمن سيعاونها فى أعمال البيت؟!.

* الجمجي: صخرة مموهة لها يد مقبرة.

أما جدى الوتد، فموقفه مختلف تماماً. فهو يكن كرهاً عميقاً لخزان أسوان والسد العالى وكل ما يمت للشمال وأهله بصلة ويطلق عليهم آل فرعون. وعندما تزوج عمى بقاهرية، حرم عليه نزول القرية وتبرأ منه. ولا يتعاون مع موظفى الحكومة ويوم جاءت لجان حصر السكان والبيوت رفض مقابلتهم.

عشق المكان كان يسرى فى دمه كسريان الزيت فى الزيتونة كما يقولون.

• ١١ •

الآن

يرحل «كنود» وصندوقه العجيب الذى حيرنا. كدت مع العمدة وجمع غفير من الرجال لمساعدة «كنود» والصندوق الكنز. بين هؤلاء المتطوعين من ترك صندوقه أو سريره ومن لا يقوى على حمل نفسه، ومن لا يكن وداً لـ «كنود». وأيضاً الناظر وموظف البريد. كلهم جاءوا. لا للمساعدة إنما لرؤية الصندوق ولمسه..متوقعين شيئاً ما. أمراً ما. شيئاً غيرعادى ولا مألوف.

«كنود» يجلس فى تبلد واستسلام مدخناً غليونه وبجواره «سرة». قال فى حسم: دعوا كل شىء كما هو وخذونى بسريرى وصندوق «كندارى»، وضحك أحد الرجال وقال ساخراً:

- وماذا عندك غيرهما؟

أشار له على الحوائط المزينة بمشغولات العروس النوبية.. تركوها كما هى. تنافسوا على حمل الصندوق و«كنود» حمله أحد الأقوياء.

الغليون في فمه والصرة في يده. الصندوق كأنه نعش يتجه للنيل وليس للجبانات. و«كنود» لا يكف عن النصح: على مهلكم يا رجال. هذه السكة أسمن. إياكم والتعثر. حاذروا الحفر والمطبات. حتى وصلوا للمنطقة الحرجة؛ المدق الهابط للنيل. كنا ونحن صغار، للهو في هذه الرقعة، نتدحرج منها للنيل ونتسابق. ومال وقوع الزلازل، وقع المحظور. تعثر أحد الحاملين بحجر ومال ثم كبا. اختل توازن الآخرين فسقط الصندوق من بين أيديهم وهوى لأسفل محدثاً دوياً هائلاً، وتدحرج مرتطماً بالصخور وتحطم.. فتناثرت محتوياته. صرخ «كنود» ولطم كالنساء:

- «واجورى.. واجورى»*.

أخذ يلطم بقوة وقسوة ويصرخ صراخاً أرق الموتى. وانتابته أزمة قلبية حادة.. فشهق ومات.

والرجال.. كل الرجال، تركوا الجثة واندفعوا لأسفل يتسابقون، يتدافعون، يتعثرون حتى وصلوا لحطام الصندوق وانتشروا يبحثون عن كنوز الملك سليمان وسبائك ذهب وادى «العلاقى» وحلىّ «كندارى» وجداتها. وكلما وجد أحدهم شيئاً وأمسك به يلقى به ساخطاً:

- وتُجيلدى»**.

لا شىء. لا ذهب ولا كنوز ولا حتى جثة «كندارى». لا شىء له قيمة ومعنى الشىء الوحيد المفيد هو الكفن على عادة المسنين. الرجال

* واجورى: يا خسارة.
** وتُجيلدى: يا للفرف.

وقفوا في ذهول لا يصدقون. ما هذا الهبل؟ أى مجنون هذا؟ وما هذه الأشياء العجيبة؟ وما معنى احتفاظه بها؟ سيوف قديمة صدئة. حراب وتبال. دف قديم. علم. ملابس غريبة مهلهلة. تاج. تماثيل صغيرة لمساخيط. رقعة من جلد الغزال ملفوفة بعناية. فتحوها فوجدوا كتابة غريبة ليست عربية. قال العمدة أسفاً:

- رجل مجنون.. كل هذه المدة ولم نكتشف جنونه.

وأضاف ناظر المدرسة:

- هذه أدوات سحر وشعوذة.

وقال موظف البريد بأسفاً في «عبه»:

- كان مخلوياً للجن.. وهذه أدواتهم.

تذكر أحدهم الصرة التى كان يحملها «كنود».. فهتف مسروراً:

- الصرة.. الكنز في الصرة.

ركضوا صاعدين في سباق رهيب حتى وصلوا للجثة، استخلصوا الصرة من يده وفتحوها فتناثرت على الأرض كمية من الطمى الناشف.

- تراب.. كان يحمل تراباً!

- ادفنوه وخلصونا منه ومن جنونه.

- والله العظيم لولا مخافة الله لتركناه للذئاب تنهشه.

كفنوه، دفنوه حيث هو. وكان آخر من مات فى البلاد القديمة وأول من دفن بلا طقوس، بعيداً عن الجبانات، لا حملوا نعشه للمسجد. لا صلوا عليه. لا صوتت امرأة. ولا حتى تشهدوا عليه لحظة طلوع الروح.

١٢

لحظات

أخيرة قبل الرحيل، جدى اسمر بيكى فى صمت طوال فترة نقل الأمتعة، نعم هى لحظات صعبة وقاسية، أمى جلست تعدد وتبكى موتاها فى الجبانة، نقلنا كل شئ عدا أزيار السبيل و«الجمنجى»، لثقله وعدم جدواه فى البلاد الجديدة والصندوق الذى كنت مصمماً على نقله. مر علينا العمدة يتعجلنا. أمر جدى الحريم بالتحرك إلى الباخرة أمى صوتت وهى تخرج من الباب وأختى دخلت السبيل وحطمت أزياره سابة:

- فى ستين داهية.. إن شاء الله بلا عودة.

كنا قد أفرغنا محتويات الصندوق من ملابس وأغطية وكفن جدى ومع ذلك، بدا لجدى ثقيلاً. تخلص من الصندوق مبسملاً، مستعيذاً، وضع أذنه فوق غطاء الصندوق وقال فى فزع:

- الصندوق كأنه مسكون.

- هيا يا جدى.

- مسكون والله يا ابلى.

- أوهام ياجدى.

- ثمانون عاماً والجن يسكن بيتنا ولا نعلم.. ألهذا كان الطعام يشح علينا؟ ألهذا كنت أشعر بالضيق؟

- يا جدى.. نحن فى عز النهار.

- اسمع الكركبة.. هذه حركات جن محبوس.

- لاتفزعنى يا جدى.

- أين المفتاح؟

- مع أمى..

استخدم حجراً فى تحطيم القفل متمتماً: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، صاحب البيت محمد رسول الله. بعيد يا بلاء. الله أكبر. الله أكبر.

فتح الغطاء بسرعة ثم قهقه طويلاً. ضحك جدى كما لم يضحك من قبل حتى دمعت عيناه. ورغم عبثية الموقف ومزحه، كنت على يقين بأنه حين يتمالك سيشج رأسى بعصاه..

- أنت يا إبليس.. فعلت هذا.

- ان أرحل دون كلبى.

- وتستغفلنى..

- لا حيلة أمامى.

- سيفطس.

- يا جدى حرام.. سيموت جوعاً.

- وماذا نفعل؟ حكم القوى..

فك وثاق الكلب،وأطلقه، قفز من الصندوق وتمسح بى. حزنت من أجله. فشلت محاولتى فى إنقاذه. مات حماسى فى نقل الصندوق، قلت لجدى مثبطاً همته:

- الصندوق ثقيل يا جدى.

- يا عكروت.. كشفت نفسك.

سرنا وجدى فى اتجاه الباخرة، خطواته ثقيلة جداً. وحزنه فادح. لم أر جدى من قبل بمثل هذا الحزن ولا حتى عندما غرق أحد أعمامى فى واحدة من الفيضانات العالية. ولا عندما اكتسح فيضان مبكر كل زراعاتنا، ولا عندما جاءت أنباء زواج عمى الثانى بسيدة قاهرية ولا عندما حل علينا موسم شح فيه الطعام لدرجة المجاعة. ولا فى أكثر الظروف قسوة ومدعاة لليأس. كان جدى دائماً شامخاً متماسكاً.

لكنه الآن ينهار وهو يغادر المكان. صار حزنه بلا نظير وبدأ يدندن بأغنية سودانية بعد تحريفها:

«حبيت علشانك كيشى
حبيت ديارى علشانك
عشقت أرض اللوبة
اللى شاربه من ريحانك
ظلم السد اللى خانك
يا ريته لو كان خانك».

ثم توقف ومسح دمعتين وخبطنى لائماً:

- الله يقطعك أنت وكلبك.. نسيتنى زيارة مقابر أجدادى وقراءة الفاتحة على أرواحهم قبل الرحيل.. اذهب وسألحق بكم بعد قليل.

- خذنى معك.

- اذهب.

- يا جدى.

- لا تكن مناكفاً.

أشرت لكلبى أن يتبعه ويحرسه. كان يسير ببطء فى اتجاه المقابر وكأن الشيخوخة قد أطبقت عليه مرة واحدة.

• ١٣ •

البواخر

والناس تحولوا لكتلة صماء، لا أحد يغنى أو يبكى أو يضحك. لحظة فراق مهيبة للمكان. والكلاب جئت.. تجمعت عند الشاطئ عنا كلبنا. حين صعدت لباخرتنا، سألتنى أمى هلعة:

- أين جدك؟

- جدى ذهب للجبانات.

- كل هذا الوقت.

- سيأتى حالاً.. لا تقلقى.

لكن الوقت مر حتى وصلنا للضحى وجدى لا أثر له. أمى صوتت. تجمع الناس حولها: مالك يا «آشة همّد»؟

- حاج «محمد مافى».

والعمدة يتساءل فى غضب:

- أين الحاج «محمد»؟

أمسكت ذيل جلبابى فى أسنانى وركضت أقطع شارع «الطيباب» الرئيسى كالبرق، وجدته هناك أمام دارنا، فوق المصطبة يتوسد يده. وكلبنا يقعى حارساً. دنوت منه، حسبته مات. وجدت وجهه مبتلاً بالدموع. أكان يبكى نائماً؟ أم نام باكياً؟

- جدى.. جدى «هُوى».

نتبه مستغفراً. نهرنى.

- ماذا تفعل هنا؟

- وأنت؟

- لا شأن لكم بى.

- الباخرة سترحل دوننا يا جدى.

- هيا، أسرع.. الحق بها.

- يا جدى لا وقت للمزاح.

- لا أمزح.

- يا جدى.

- اركض.

أشده.. يقاوم، أشده.. يغضب، أشده.. يضربنى برفق.

- الذئاب يا جدى!

- ستعرسنى الكلاب.

- ستجوع وتتوحش وتأكلك.

- معى الله.

بكيت، لطمت، هدأنى، احتضننى، قال بصوت حزين يشبه البكاء: ليس الأمر سهلاً كما تظنون. أبداً ليس سهلاً، إنه كخلع الضرس، وبالذات ضرس العقل. أنتم أخذتم المسألة ببساطة ويسر، أما نحن الشيوخ، أما أنا، فالمسألة مختلفة، انظر لهذا البيت، أجمل وأوسع بيوت «كشّى»، فحين ابتعلت مياه الخزان بيوتنا القديمة وصرفوا لنا التعويضات هاجر بعض الرجال إلى الشمال وبددوا فلوسهم فى السُكّر والنساء وأفلسوا وضاعوا. العقلاء هاجروا إلى «توشكى» و«عنيبة» و«إسنا» و«أدفو». اشتروا أرضاً وسكنوا هناك. والأصلاء اختاروا البقاء هنا، صعدنا للجبل. اخترنا وقررنا البقاء حيث نحن فى نفس أماكن الأسلاف العظام. ولم أبخل، أحضرت البناءين من «أسوان».. انظر لهذه القباب.. شيدها أشهر بناء فى «حلفا» بطريقة لا تؤثر فيها الأمطار. أبداً لم أفكر فى الرحيل شمالاً ولا جنوباً، جلبت الطمى من أسفل على مدار سنوات وبنيت مزرعة فى حضن الجبل. «كشّى» يا ابنى عندى أجمل وأحسن مكان فى الدنيا. هنا كانت جدتك تغزل. هنا ولدوك. هنا أقمنا الأعراس وتقبلنا العزاء. وفوق هذه المصطبة كنا نتسامر ونحلم.. لا.. لا.. لن أغادر. هذا مستحيل. سعل جدى،أصابته نوبة بكاء ودندن:

«حبيت عشانك كشّى.. حبيت ديارى عشانك»

مسحت دموعه بطرف جلبابي، احتضنته. قبلته بقوة وحنان ونسيت مهمتي التي ستحدد مستقبلي. لم يبق أمامي سوى جدي..

- سأبقى معك.. ونغرق معاً.

- لن نغرق يا ولدي.

- يا جدي.. مياه السد ستبتلع حتى الجبال.

- يضحكون عليكم.

- السد يا جدي.. عالٍ جداً جداً.

- أهي أعلى من جبالنا.

- يا جدي.. المسألة محسوبة هندسياً.

- كلام مدارس.

سمعت صراخ أمي وقريباتي، أحاط بنا عشرات الرجال بينهم العمدة الذي زعق:

- أفزعتنا يا حاج.. قم وكفاك دلع.

صاح جدي بإصرار:

- ارحلوا يا ناس ودعوني لشأني.

رد العمدة ساخراً:

- نرحل.. أنت الآن عهدة في يدي مثل خيل الحكومة.

- الله يسامحك.

وقف العمدة خطيباً:

- اسمعوا يا ناس.. كل من ورد اسمه في الكشوف لابد أن يصل حياً إلى هناك.

جلست أمي بجوار جدي.. قالت جادة:

- سأبقى معك.

وأختي أضافت:

- وأنا أيضاً.

قلت:

- لن نرحل دونك يا جدي.

كيف أقنع جدي بأننا لو بقينا.. سنغرق جميعاً وأن هذا أقوى من طوفان نوح، سنقطع عنا المؤن وسنعزل عن الدنيا.. هذا جنون مطبق. تدخل العمدة حين وجد إصراراً من جدي وتعاوناً منا في مشروعه الانتحاري، وحسم المسألة: بأمر رئيس البلاد لن يبقى هنا مخلوق سوى الكلاب. هيا ولا تضيعوا وقتنا. وأنت يا ولد خذ أمك وأختك للباخرة. التصقت بجدي.

- لن أترك جدي.

انتزعني بعنف، خبطني بعصاه. قال لجدي آمراً:

- قم يا حاج.

- لست من حريمك لكى تأمرنى.

- هذا أمر رئيس البلاد.

- ولست من رقيق رئيسك.. سأبقى فى بلدى.

- لآخر مرة.. تحرك يا حاج.

- لاتحاول يا عمدة.

- لاترغمنى على استعمال القوة.

- هل ستضربنى بالرصاص أم ستستدعى الهجانة؟

- لى وسائلى.

- أرنى هذه الوسائل؟

أشار العمدة لمرافقيه. هجموا على جدى. قيدوا يديه. حملوه وأسرعوا به. وهو يقاوم. يقلفص. يرفس. يعض. يسب. كانوا عصابة وأقوياء. عند الشاطئ، قاوم بضراوة حتى فكوا وثاقه وأطلقوه.. لكنهم أحاطوا به من كل جانب. سبهم:

- يا أولاد الزنى. آخر الزمن تعاملونى كالخروف.

نفض ملابسه، وقف فى شموخ، نظر للخلف بحسرة وللكلاب بإشفاق وللنهر بوله وشوق، خلع عمامته وجلبابه. تقدم للنهر بوله وشوق مغنياً:

«نيل.. يا تيلنا.. كمّلى يا بلدنا».

حاولوا التحيلولة دونه وللنهر. قال بإصرار:

- هيا نودع النهر يا رجال قبل الرحيل.. أستطيع الوصول إلى السد سابحاً.

النهر هذه الأيام فى أنسب حالاته للسباحة. قفز جدى للماء متمهلاً جلبابه. سبح فى رشاقة وشباب ومهارة التماسيح، يضرب الماء بقوة ويتوغل.. يتوغل حتى وصل إلى منتصف المسافة بين «مائى» و«تجارى» ثم توقف. العمدة شك فى نواياه. أطلق فى الهواء مقذوفاً للتحذير. لكن إلى أين سيذهب؟ أيعبر للبر الغربى ويهيم هناك أم ماذا؟ بعض العسكر حرضوه من الشاطئ لكأبة فى العمدة وحكومته:

- أنجوجر* يا حاج إلى الجنوب.

ووجد العسكر تعضيداً من المسنات.. قهقهن:

- أنجوجر يا الله السلامة.

وبدت اللحظة حاسمة فى مهمتى، جمعت الشباب الذين فى سنى وهتفنا بصوت زاعق قوى:

- كلومنجر** إلى الشمال.

ووجدت مساعدة من أختى والبنات وحتى العمدة فى موازرتنا.

- كلومنجر.

- كلومنجر.

* أنجوجر: للجنوب.

** كلومنجر: للشمال.

- كلومذجر.

كان صوت أختى قوياً واضحاً. جدى ربما فكر بعمق واتخذ قراره بكامل إرادته، فقد بدأ يسبح فى اتجاه الشمال. حينه الباخرة بصفارة وتحركت لتحاذيه أو تلتقطه. وفجأة اشتعل الجحيم داخل الباخرة، امرأة هيجت الذكريات أشجانها.. فصرخت:

- واجورى[1] .. واجورى.

وشاركتها الأخريات:

- يا إندى[2].
- يا أمياب[3].
- يا آنو[4].

كلهن تجمعن فى مؤخرة الباخرة يودعن أمواتهن فى المقابر، الأمهات والآباء والأجداد. كان للموتى عندنا تقدير خاص. سيتركونهم لمياه السد وهو أمر بالغ الأذى للنفوس هؤلاء الناس. تحولت الصرخات الفردية إلى نواح جماعى. جمعت الأولاد ورحت بهم للطرف الآخر من الباخرة ورأيت أن أقوم بعمل ما.. شئ ما.

فأنشدت والأولاد معى:

(١) واجورى: يا خسارة.
(٢) اندى: أبى.
(٣) أمياب: أبى.
(٤) آنو: جدى.

«بلادى.. بلادى.. بلادى
عشّى يا أم البلاد
مصر غايتى والمراد».

قال لى العمدة مربتاً على ظهرى بامتنان:

- أنت تقوم بعمل رائع.

لم أقل له إننى فى «منظمة الشباب».. تركته على «عماه» وواصلنا الإنشاد حتى توقفت النساء عن النواح.

كان جدى ما زال يضرب الماء بقوة فى اتجاه الشمال حتى حاذته الباخرة وضبطت سرعتها على سرعة جدى حتى حار الناس: هل جدى أسرع أم الباخرة. وعلى الشاطئ، على امتداد المسافة كانت الكلاب تجرى نابحة وقد أحست بالخديعة، تجاوزت الأودية والجبال ووصلت للقرية التالية واشتبكت مع كلابها.

وجدى ما زال قوياً ومستمراً، كان منظره جميلاً وهو يهز رأسه يميناً وشمالاً ويضرب الماء بقوة، ازدحم الحاجز بالناس يتفرجون مبهورين، كبّر رجل:

- الله أكبر.. الله أكبر.

فزغردت إحدى قريباتى. تلاشت كشّى ببيوتها وجبالها وكلابها بعدنا الآن عن المكان وجدى ما يزال...

- حتى الشلال يا حاج.

- قوى مثل أبيه.

- عنيد مثل آل «عوض موسى».

- نصاح نوبى.

- أبوالنماسيح.

تجاوزنا «ماريا» و«أبو هور» و«اميركانب» وجدى مستمر فى نضاله وكأنه صمم فعلاً على الوصول إلى السد سابحاً. لولا ظهور جسم عائم لا يبين منه سوى الظهر. صرخ أحد خبراء كائنات النهر:

- نصاح.. نصاح.

صرخت أمى أيضاً فأفزعت الركاب. ألقوا إليه بطوق النجاة والتقطوه فى نفس لحظة وصول الجسم العائم للبقعة التى كان فيها جدى.

• ١٤ •

لهثت

أراقب الجسم العائم وحدى، لا يغطس أو يعوم، مجرد كتلة سوداء متحركة وليس هو بجزع نخلة، حين التصق الجسم بالباخرة ودققت فيه النظر اكتشفت إنها جلة فوقها قميص مشجر، عرفته وكتمت الخبر عن العمدة حتى لا يبول على نفسه. وطوال أشهر بعد ذلك لم أبح بالسر لأحد رغم أن السلطات أجرت تحريات واسعة عن سر اختفاء «كتبة نيما كوداى».

• ١٥ •

حملتهم

الحافلات من الشلال وأفرغتهم على بعد شاسع من المكان القديم، فوق أرض قاحلة جرداء لا تصلح للحياة ولذا ظلت متروكة رغم ضيق الأماكن في قرى الصعيد؛ عقاربها سوداء متوحشة ، يعومنها مصاص للدماء، ومع ذلك، فالجبال متشابهة والمناخ متقارب، لكن العقارب لا تكف عن الزحف، فملأت الأحواش والغرف وتسلقت الأسرة والحوائط. حيث نخطو لاتجد سواها وأمي تظن الجبل مسكوناً بالجن وتقصصت العقارب فتبسمل وهي تسحقها بالمركوب، ومنذ اليوم الأول لوصولنا وضعنا صورة «جمال عبد الناصر» على أبواب البيوت وكلما مات طفل من لدغ العقارب نزع أهله صورة الرئيس حتى اختفت معظم الصور بعدد الأطفال الذين ماتوا. لكن الأحوال في مجملها.. كانت طيبة، فمعونة «الشلون» صرفت للمسنين ومن لا عائل لهم. وأختي «سعيدة»، تسمع أغاني الشمال

وترددها. ليس لديها متاعب؛ الحنفية العمومية على بعد أمتار والخبز يأتي جاهزاً من الأفران وأبي زارنا وأهدى لأختي راديو بطارية. وأنا أنط في القطار وأصل لأسرتي بعد ساعة و«أمين الشباب» عند وعده لي. أما جدي.. صار مشكلة، أكبر مشكلة. من اللحظات الأولى وهو في حالة ذهول ورفض للمكان، قام بجولة تفقدية وعاد ثائراً:

- أين النهر.. لقد نشلوا نهرنا، سأشكوهم لـ «جمال»؛ كيف أكون نوبياً بلا نهر؟!

وامتد سخطه فشمل المكان كله بجباله وسهوله وطقسه وقطاره:

- ما هذا.. يأتون بنا من بلادنا ويلقون بنا تحت هذه الجبال المسكونة بالجن. وما هذه الأسقف الأسمنتية.. بيوت بلا قباب ليست بيوتاً نوبية وماء الصنابير ماسخ.. أين منه ماء النيل الصايح الحلو؟ وهذا الخبز ألوكه كاللبان ولا ينزل من حلقي فأين عيشي «الدوكة»*؟.

جدي طوال الوقت يحك ظهره بعصا أو في الحائط. أمي تجهز له الحمام حتى لا يصاب بالجرب لكنه يأبى لأن الطشت للنساء والأطفال والنهر للرجال. لكن أين النهر؟ ذات صباح، حمل جدي غياره وعصاه وخرج باحثاً عن النهر. عاد في المساء مرهقاً حزيناً: النهر هنا، ليس كما عندنا. هنا ضيق عميق وعكر وملوث، هؤلاء القوم يجهلون قيمة النهر، يلوثونه بالحيوانات النافقة والمجارير وروث البهائم وحتى بالقمامة. النهر هنا مهان. يا ربي.. كيف يفطون هنا بنعمتك؟ جدي

* الدوكة: خبز يصدع على صاج من الصفيح.

هدأ قليلاً بعد اكتشافه طريق الوصول إلى النهر.. كلما ضاق به الحال يذهب ليتأمل أو يسبح رغم بعد المسافة وامتدت جولاته لتشمل قرى الصعيد المجاورة، رغم التعليمات المشددة بعدم الاختلاط لحين استقرار الأمور. خالف الأوامر وزار نجع «قطيرة» وعاد بانطباع مبشر: أهل نجع «قطيرة يا جماعة مثلنا تماماً؛ دينهم الإسلام وتقاليدنا وعاداتنا واحدة، أحسست وأنا بينهم بأنني بين أهلي في أي قرية نوبية. وجدنا الكبير واحد وليسوا عصابات من القتلة واللصوص كما تتصورون والفارق الوحيد بيننا هي اللغة. لكن بعض أطفالهم.. أضحكوني.. تصوروا أحد هؤلاء الصغار تتبعني وباغتني برفع جلبابي، أسرعت خلفه وأمسكت به وطلبت تبريراً لهذا الفعل المعيب.. فقال لي خائفاً وهو يكاد يموت رعباً أن الأطفال يقولون بأن البرابرة لهم ذيول.. فراهنتهم لكي أتأكد. والله لولا كبر سني وصغر سنه لخلعت له سروالي حتى أزيل من رأسه مثل هذه الأمور. وأثناء عودتي رآني بعض هؤلاء الأطفال ففروا هاربين.. عدا واحد، كان كسيحاً فبقي مكانه. دنوت منه وطمأنته وسألته عن سبب فرار الأطفال فقال بسذاجة وبراءة الطفل الأول: خافوا أن تأكلهم.. لا تأكلني يا عم الله يخليك.

١٦.

كنا

في عُرس ذات يوم ورأيت ذلك المراكبي الذي حمل «كتبة تيما كودای» في رحلته الليلية، تتبعته وترصدته حتى رأيته مع غيره من صفوة المدعوين في جلسة شراب على شرف العريس، سعيت لمن دسني وسطهم، ولأنني حديث السن ولا أشرب فقد بدا وجودي بينهم مثيراً للانتباه فأخذت أقوم بخدمتهم وكأنني من أهل العروس وأكثرت من تقديم الشراب للمراكبي حتى وصل لذروة النشوة، فأقتحمته لعلي أجد حلاً للغز: من قتل مستر «كتبة تيما كودای»؟ كان ما يزال قادراً على التماسك فأربكته بكلوس متتالية وحاصرته بسؤال مركز وأنا أحدق في عينيه بثبات:

- ماذا فعلت بالرجل؟

- من الرجل؟

- الغريب!

- غريب.. ما غريب إلا الشيطان.

- أنت تعرف من أعلى.

حاول الانصراف عنى والتواصل مع الآخرين، فجذبته بقوة ناحيتى:

- لا تتهرب.

- اتهرب من ماذا وأنا لا أعرف أصل الموضوع.

- مسئر «كتبة تيما كوداى».

- ماذا به؟

- أنا الذى أسأل؟

- قلت كل معلوماتى للشرطة.

- أى معلومات.

- كأنك محقق.

- لست كذلك.

- مخبر.

- وكأنك تجهل من أكون؟

- أيوه يا أخى.. الخمرة ملعونة تشوش على الواحد.. أنت من قبيلتنا وحفيد شيخ مشايخ «الكلوز».

- عظيم.. وقد عرفتنى الآن لا تخشى ولا تخفْ وبح بما عندك.

- ليس عندى غير الذى قلته فى التحقيق.

- وما هو؟

- الرجل ركب الباخرة من «أبى سمبل» متجهاً إلى «حلفا» لزيارة أهله.

- هذا غير صحيح.

- لماذا؟

- لأنى رأيت جثته طافية فى النيل.

ارتبك المراكبى، طارت السُكرة من رأسه، شدنى من يدى وخرج بى إلى الساحة وجلسنا فوق حجر ضخم وسألنى خائفاً:

- تقول رأيت جثته!

- نعم.

- وهل التقطوها.

- لا أظن فتماسيح النيل مهمة للغاية وربما تحللت أو جنحت لأحد الأخوار فالمنطقة كلها خالية من السكان.. وفى كل الأحوال لم تصل إلى الشلال، لأن الشرطة ما زالت تسأل عنه بين وقت وآخر.

- الله يرحمه.

- والآن ماذا حدث؟

- أيهمك أمره؟

- مجرد حب الاستطلاع.

- ويبقى الموضوع سراً بيننا.

- أعدك.

أشعل سيجارة، قام، تمشى قليلاً وكأنه يسترجع الشريط وجلس على الأرض متكئاً على الصخرة وقال بصوت محايد وكأنه يتحدث عن شخص مجهول:

- فى الواقع، خلال إبحارى مع الرجل من قريتنا وطوال الطريق كان يقول كلاماً لا أفهمه وعن قوم من الماضى السحيق. مثل «اللوب» و«كوشى» وأشياء من هذا القبيل وحين وصلنا إلى بلاد «الفادجا» قال جملة كانت السبب فى هلاكه بعد ذلك.

- وماذا قال؟

قال ساخراً: إنها بلاد الممالك الفارين والكُشّاف الحكام. الجملة كانت بعيدة عن ذهنى ولا فكرت فى إنها قد تكون إهانة لأحد من سكان المنطقة. لكن عندما وصلنا «أبو سمبل»، رافقنا مرشد سياحى اسمه على ما أذكر «حسن الكاشف». كان طويلاً، جميلاً، ودوداً فوق كل هذا يجيد الغناء النوبى.. بل إن صوته أجمل من كل الأصوات المعروفة لدينا وكان يعتز بنوبيته لدرجة التعصب. ركب معنا فى جولة البر الشرقى وحدث بينهما حوار عنيف بعد وصلة غناء شجية. ولم أفهم فى الواقع السبب الحقيقى للشجار.. وإنما أذكر بعض الكلمات التى تناثرت مثل الأتراك، الكُشّاف، الأصول، الـ .. الـ.. وإذا بالشاب الوديع الذى كان يغنى «شلوية»* منذ قليل يقوم منتفضاً ويسب «الغريب» فى ثورة..

* شلوية: أسطورة نوبية.

- أنت تشكك فى نوبيتى يا وغد.

ثم هوى بظهرالطنبور على رأسه بقوة.. فمات.. رميناه فى النيل وراح كل منا فى طريقه.

• ١٧ •

بعد

أيام، تلقى جدى دعوة جماعية للغناء مع أهل نجع «قطيرة» للتعارف وتوطيد أواصر الصلة. أجلسونا فوق الحصر وقدموا لنا أطباق الفتة؛ عندهم مثلما عندنا.. الأطباق الكبيرة وتوزيع اللحوم فى الأيدى وأباريق الغسيل النحاسية وكبيرهم يقوم على خدمتنا بنفسه مردداً: مرحباً بأحفاد «عون الله بن نجم الدين»، أهلاً بالكنوز أولاد عمومتنا. القرية كلها اجتمعت للاحتفاء بنا، قدموا فنونهم وغنيدا أغانينا. كانت حفلة سمر كنزية/ جعفرية. لأننا نطلق على سكان هذه النجوع «الجعافرة» ونحن نحتسى الشاى قال لنا كبيرهم مازحاً:

- زمان ذهب أجدادنا إليكم فنوبتوهم.. والآن جئتم إلينا وسنعريكم.

رد جدى:

- أنتم تلقوننا العربى ونحن نعلمكم «الرطانة».. فمن تعلم لغة قوم.. أمن مكرهم.

- لا مكر عندنا.

- ولا نحن.

- صافى يا لبن.

- حليب يا قشطة.

- الفاتحة.

- الفاتحة.

نفس الملامح. كبيرهم مثل عمدتنا وجدى يتكرر فى عشرات الملامح. بعد هذه الوليمة صرنا كأننا أهل أو قبيلة تفرقت وتشتت فتاهت عن بعضها ثم تجمعت فكانت الفرحة.

• ١٨ •

صار

جدى بعد الوليمة جوالاً .. أحياناً بالقطار وغالباً على حماره؛ زار نجوع الصعيد المتناثرة بعدنا؛ «دراو» و«الخطارة» و«أبوالريش» و«بمبان» بحرى وقبلى و«أجليد» و«الكلح» و«سلوى» و«المنصورية» واكتشفت وجود عائلات نوبية بالكامل فى بعض هذه القرى منذ التعلية الأولى لخزان «أسوان» وأكتشف أيضاً - وهذا ما أزعجه - أن هذه العائلات قد نسيت لغتها النوبية وصارت تتحدث العربية مثل أهل تلك النجوع وتوطدت العلاقات كأفضل ما تكون وأصبح جدى رسولاً للتعارف وكسر الجمود المصطنع. جاء الباعة من عندهم ينادون على بضاعتهم بلغتنا وذهب المشترون من عندنا يساومون ويقايضون. بدأنا نتكيف مع المكان وعم الهدوء والسلام. لكن الجو تعكر عندما سطت عصابة مسلحة على بيت أحد المغتربين وجردته. الذكية أن الخفير النوبى رأى سيارة اللصوص

على باب البيت.. فتقدم شاهراً بندقيته الأميرية العتيقة لكن رئيس العصابة باغته بالرشاش وهدده: تفتح خشمك ح نطخك طخ.. لم عصابتك وأقعد اتلقح هناك... وجلس المسكين خارياً على نفسه من الهلع.. كانت هذه المرة الأولى التى يواجه فيها رجالاً مسلحين بأسلحة الجيش وليلاً.. فى البلاد القديمة كان كل أعدائه من الذئاب والضباع.. فى اليوم التالى سلم البندقية والنحاسة للحكومة واستقال ويقضى كل وقته جالساً بجوار الحوائط. وتقول زوجته أنه منذ تلك الليلة المشئومة لم يعد زوجاً. الهلع أسلب النساء خوفاً على رقابهن ومصوغاتهن فجلدن لجدى مستجيرات، فهو الذى فتح باب العلاقات وعليه تقع التبعة. جدى رفض بشدة إبلاغ الشرطة وذهب إليهم غاضباً وأمهلهم يوماً واحداً إعادة المسروقات وإلا سيبرق لرئيس البلاد رأساً. هبت قرى الصعيد المجاورة بشكل سريع وفعال وطاردوا اللصوص وقايضوهم ودفعوا لهم الفدية واستردوا المسروقات بالكامل خلال يومين. بعد هذه الواقعة صار جدى ذا شأن عظيم.. فهو العمدة والمأمور والحاكم الفعلى لمنطقة شاسعة. وجد له دوراً وكاد يتكيف؛ لولا صيف هذا العام، كان لفحه شديد الحرارة فأصاب الناس بالجفاف والغليان. وقال أهل البلاد أن صيفاً كهذا ندر حدوثه منذ قرون غابرة وقال بعضهم: الخير على قدوم الواردين. لا سقف يحمى ولا ظل. وجدى لا يجد لنفسه مأوى؛ لا أشجار غرست أو نبتت ليستظل بها ولا أسقف قباب لينام تحت طراوتها ولا النهر قريب حتى يتبرد. وجد نفسه وحيداً تحت لهيب الشمس. بلا

ملاذ ولا ملجأ. بدا المكان موحشاً مقفراً وخرجت جيوش العقارب لتزداد الحياة صعوبة ووحشة.

وجدى كالمجذون يقوم من مكان ملتهب لآخر أكثر التهاباً. بدأ يبكى ثم يغنى:

«بلدى يا حبوب
جلابيه وثوب
وجبة وصديرى
وسيف ومركوب»

ثم لزم الصمت تماماً. صمت رهيب مهيب. ولا كلمة واحدة. يرنو للجنوب بحنان ويفزع من أبواق السيارات وصفير القطارات. تدهورت حالته وأضرب عن الشراب والطعام. أختى كفت عن ترديد أغانى الشمال وبدلت مجهوداً وصنعت له عيش «الدوكة».. فرض.

أمى قطعت مشواراً وأتت له بماء النهر الطازج فشمه وتحاماه متأففاً. أبرقنا لأبى فجاء وأبرق لعمى فجاء أيضاً ومعه زوجته القاهرية وابنتهما الجميلة اللتان أشاعتا جواً من المرح فى هذا المناخ الكئيب. لكن جدى رفض دخول عمى عليه والذى استمر يدخن بشراهة. توتر فى النهاية واقتحم غرفة جدى ووقف أمامه باكياً:

- سامحنى يا أبى.

لافائدة. عمى قبل رأس جدى ويديه وتمرغ فى حضنه باكياً. ولا فائدة وكبار القوم يحاولون تليين قلب جدى على ابنه وجدى مستمر فى عناده. عمى فى نهاية الأمر لم يجد مهرباً من اتخاذ القرار الخطير!

- اسمع يا أبى.. لو كان يرضيك أن أرمى عليها يمين الطلاق حالاً.. سأفعل وأمام هؤلاء الشهود.

جدى فكر طويلاً وهز رأسه رافضاً هذه التضحية وطلب لقاء أبى الذى دخل مسرعاً واتجه على جدى محاولاً التقاط إشاراته المقعية المستعصية على التفسير أحياناً.. أشار جدى إلى عمى وأبى وضم سبابتيه فقال أبى:

- نعم سنكون أخوة متحابين.. وماذا أيضاً؟

وقام جدى بعدة إشارات غامضة عجز أبى وعمى فى تفسيرها. لكن أحد المسنين المقربين لجدى فهم المضمون وقال موجهاً كلامه لجدى:

- لكن هذا صعب ومستحيل يا حاج «محمد».

تساءل أبى:

- الذى سيطلبه.. متأففاً.. ماذا يريد؟

- يريد شيئاً مثل لبن العصفور.

- وما هو؟

- يقول إنا مت ادفنونى هناك.

- أين هناك.

- فى «كشّ» القديمة.

لعنة الصمت لحقت بأبى وعمى وكل من فى البيت لأن طلب جدى صعب ومستحيل ولن يكون أبداً. واستمر جدى فى إضرابه وجاء كبار

القوم من كل البلاد لزيارته حتى من نجوع الصعيد المجاورة. وزاره الطبيب وفسر الحالة بتداعيات صدمة المكان وأشار بنقله إلى غرفة الانعاش بمستشفى «أسوان» المركزى. لكن جدى رفض وجاء مأمور المركز وحاول إرهابه. طلب كوب ماء وقال متصنعاً الجدية:

- اشرب أو أقتلك.

جدى نظر إليه باستخفاف وحرك إصبعه الوسطى فى وجه المأمور الذى ابتسم فى مودة بالغاً الإهانة:

- مقبولة منك يا حاج.

وقف المأمور على باب بيتنا وقال بتعجب:

- ما هذا.. «غاندى» فى بلاد الدوبة. لكنه ليس بغاندى ولا نحن إنجليز.. فماذا يريد؟

رد عليه رئيس المباحث:

- هذا الرجل لا يعرف مسائل الإضراب عن الطعام.. بالتأكيد وراءه محرض دخيل.. سأتحرى وأمسك به.. امتدحنى بعض الوقت. لكن المسألة تفاقمت واتسع النطاق حتى وصل للمحافظ الذى أوفد المقدمة بقيادة مدير مديرية الشئون الاجتماعية الذى جعل من إحدى غرف بيتنا مركزاً للقيادة وأخذ يرسل الإشارات العاجلة وجاءت السيارات بأطعمة وملابس وإغاثات وتم مد مواسير المياه النقية وكابلات الكهرباء إلى بيتنا خلال يومين وزودونا بعدة مراوح أسقف وتم غرس بعض الأشجار

ووقفت عربة إسعاف مجهزة بأنابيب الأوكسجين والجلوكوز. وسرت شائعة غريبة بأن الرئيس «جمال عبد الناصر» سيأتى بنفسه لمقابلة جدى. وتأكدت الشائعة حين وصلت مقدمات من عساكر الشرطة تراصوا عند المحطة والمداخل وكان المأمور ومدير الأمن ورتب لا حصر لها وفدت للقرية. وكان الزائر هو المحافظ تفقد بيوت القرية وأسواقها ومدرستها ثم جاء عندنا ودخل على جدى وجلس قريباً منه وسأله بتبسط:

- مالك يا حاج؟

- ...

- من زعلك؟

- ...

- ماذا تطلب؟

- ...

- ماذا يقصك هنا؟

- ...

- الذى تطلبه.. سينفذ فوراً..

جدى تعلم بكلمة لم تخرج من شفتيه.

- قل ولا تخف..

جدى نطق كلمة متقطعة وصمت.

- آ.. و.. ز

- انطق.. الحكومة كلها تحت أمرك.

- آ.. و.. ز

أقاموه بصعوبة حتى استند بالحائط وصار وجهاً لوجه أمام المحافظ الذى ربت عليه بحنان وقال له مشجعاً:

- يا جدى لا تحيرنى.. اطلب حتى لبن العصفور..

- آوز «كيشّى».

وكأن المحافظ وجد مخرجاً لهذه الأزمة. وقف وأصدر أمراً حاسماً لسكرتيره:

- خذ سيارتى واحضروا له «كيشّى» من تحت الأرض حالاً.

نظر السكرتير للمحافظ والمرافقين وتساءل فى حيرة:

- لكن ما هى «كيشّى» يا جماعة؟ نوع من الطعام النوبى أم ماذا؟

قال المحافظ:

- اسألوا العمدة؟

وقال العمدة موجهاً حديثه للمحافظ حتى لايقع تحت آلاعيب رئيس المباحث:

- «كيشّى» ياسيادة المحافظ.. هو الإسم القديم لقريتنا.

قال رئيس المباحث مؤكداً حاسته الأمنية:

- ياسيادة المحافظ.. هذا الرجل خلفه محرض.

- رد عليه المحافظ مهوناً:

- لا تكبر الموضوع يا باشا.. مجرد تخاريف احتضار.. انقلوه إلى غرفة الإنعاش.

وهم يشربون شاى المنياقة علق المحافظ بأن الأمر كله راجع لغياب الوعى السياسى الثورى عند هؤلاء الناس ووجه نقده لأمين الاتحاد الاشتراكى:

- أين دوركم؟ أليس لكم وجود هنا؟

رد أمين الشباب بحماس:

- لنا يا افندم.. وهذا أحدهم.

وأشار نحوى.

وسألنى المحافظ:

- ما أمر هذا الرجل؟

- هو جدى يا أفندم!

- وكيف يحدث هذا فى أسرتك.

رد أمين الشباب:

- لقد سقط فى الامتحان.

سألنى رئيس المباحث:

- من حرضه فى نظرك؟

- جدى يستعصى تحريضه.

- ماذا إذن؟

- الظروف حرضته.

وإذ بالمحافظ الذى كان معتدلاً ومثقفاً حتى الآن يستشاط غضباً ويقذف بالحمم والبراكين.

- ظروف.. ظروف؟ أى ظروف تتحدثون عنها. أنتم أفضل فئة عاملتها الثورة بتدليل؛ بيوتكم من الدبش وأسقفها من الأسمنت ولديكم المياه النقية والإنارة؛ هناك مواطنون مثلكم تماماً فى قرى الوجه البحرى يسكنون فى بيوت من الطوب اللبن وأسقفها من القش ولا عرفوا المياه النقية ولا الكهرباء حتى الآن وفى العاصمة نفسها ناس ينامون فى الشوارع والقبور وفى مساكن الإيواء.. يا أخى فلقمتونا؟ ماذا تريدون؟ قصور أسرة «محمد على».. أم فيلا على شاطئ الإسكندرية؟ لو أعرف ماذاتريدون؟!

- ١٩ -

عدنا

من جديد لدوارت (التثقيف السياسى) ورجع الرأس وبدأنا نسمع مصطلحات جديدة عن «الوحدة الوطنية» وهى غير (الوحدة) «اللى ما يظبها غلاب» وعن (عملاء الأنظمة العربية العميلة) وهم غير (عملاء الاستعمار) و(الثورة المضادة) وهى غير (ثورة ٢٣ يوليو). وأشياء من هذا القبيل وطلبوا منا مراقبة الشبان النوبيين الذين يعملون فى «السعودية» و«ليبيا» وكان هؤلاء يدخلون لتلك الدول عن طريق «السودان». وكنت أعرفهم بالاسم ولم يكن بينهم من يحترف السياسة وكان همهم الحصول على الرزق.

وقال لى «أمين المنظمة»:

- لو أرشدتنا على المحرض.. ستدخل الجامعة دون الحصول على شرط المجموع الكبير.

- أهذا ممكن؟

- نحن نستطيع تنصيبك عمدة للقرية رغم حداثة سنك لو إردنا ولم تكن كل هذه السخافات تعذيبى فى شئ. كان همى كله مركزاً على جدى الذى تدهورت حالته. وذات يوم تشجعت زوجة عمى واقتحمت غرفة جدى ووقفت أمامه بجمالها وحيويتها:

- والجميل زعلان منى ليه بقى؟

جدى فوجئ بها فرنا إليها باستغراب وحيرة.

- بقى بذمتك فى واحدة حلوة زى فى بلدكم؟

كانت هذه أول مرة يراها جدى ولابد أنه انبهر بجمالها كما حدث لنا وشجعها صمته على التمادى فى مشاكسته فمادت على ابنتها:

- بوسى جدو يا «غادة».. والنبى قلقة قمر.

تلقى جدى القبلة برضا وبشاشة فجلست زوجة عمى بجواره وأمسكت رأسه ووضعته على حجرها فبدا كطفل رضيع فى حضن أمه، مسحت وجهه بيديها وقرأت بعض الآيات وانحنت عليه وقبلته فى فمه. أخفت أمى وجهها خجلاً فهى طوال عشرتها لجدى.. لا صافحته ولا احتكت به ولا دخلت عليه سافرة الوجه. لكن هذه القاهرية المدهشة تفعل أشياء مدهشة وجريئة. طلبت كوب ماء وأدنته من فمه..

- اشرب يا بابا.

جدى حاول التملص منها.. لكنها حاصرته.

- بطل دلع. ح تشرب يعنى ح تشرب.

وضعت حافة الكوب على شفتيه وأخذت تشجعه بمداعبته والمسح على صدره بيدها الأخرى ومصت شفتيه بقبلة عجيبة أخجلت أمى فولت هاربة ثم وضعت كوب الماء على فمه مباشرة.

ياللا.. هو به.

وإذ بجدى يمسك الكوب ويعب الماء عباً وطلب المزيد.. لكنها طلبت شوربة الخضار الدافئة وأخذت تطعمه فزغردت أمى وأخذنى وكبّر أبى فكبر خلفه كل المسنين الذين فى السبيل. شرب وأكل ونام وشخر على حجر زوجة عمى.. وبعد ساعات شهق ومات.

نعم جدى مات. لا كما يموت الناس والبحر إنما كالأشجار. وخلال الأيام التى تلت موته، حاصرتنى عشرات الوجوه؛ «كتبة تيما كودای» بجباله ومزارعه، «كندو» بصندوقه العجيب واسمه الأغرب، «رمسيس» بتماثيله البديعة، «نجم الدين» وأولاده الذين زحموا المكان، فلول المماليك وكُشّاف الأتراك.

لكن كل هؤلاء لم يقللوا أو يرفعوا من شأن جدى، كان موجوداً بقوة ورسوخ وشموخ وهو كما عرفه المعاصرون؛ بسمرته وطيبته وسماحته، لقد أبعدوه عن الجغرافيا.. ربما. لكنه، لكننى، لكننا، نقف عند حافة التاريخ، محتفظين بتوازننا، حاملين النوبة فى وجداننا. لا نذعب ولا نكل ولا نمل، وحين يشتد بنا الحنين إلى هناك نغنى «أسمر اللون» وحين يضيق بنا الحال هنا ونحاصر بالآت التذويب الجهنمية، نراوغ ونهرب لنجتمع فى أى شارع أو مسرح أو عرس أو.. أو.... أو، ونتنفس

عن حزننا وأزمتنا برقصة «الأراجيد»، نرقص دائماً.. «أراجيد»، «أراجيد»، «أراجيد»:

«هيلى.. هيلى.. هلاّ
هالاّ هالاّ.. أيوه
حلاوة يا أيوه
حلاوتى.. حلاوة
يا شربات..
حلاوة يا شربات».

صدر للمؤلف:

١. المبعدون قصص. الطبعة الثانية مركز الحضارة العربية ١٩٩٩
٢. واحد ضد الجميع قصص. الطبعة الثانية مركز الحضارة العربية ١٩٩٩
٣. وقائع عرق البهشة قصص. الطبعة الثانية مركز الحضارة العربية ١٩٩٩
٤. دنقلة رواية. هيئة الكتاب ١٩٩٤.
٥. انفجار جمجمة رواية. الطبعة الثانية. المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٠